

# سيرة الرسول

في تصورات الغربيين

للمستشرق الألماني  
جوستاف بفانمولر

ترجمة الأستاذ الدكتور

عبد محمد بن زبون



## بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :-

يعد هذا البحث امتدادا للبحث الذي سبق أن قمنا بنشره في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر ، والذي ترجمنا فيه بعض الفصول المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الإسلام - من كتاب المستشرق الألماني جوستاف بفانموللر Gustav Pfannmueller « موجز في أدب علوم الإسلام » Hand- buch der Islamliteratur الذي أورد فيه المؤلف أهم المراجع في علم الإسلاميات في الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا وقام بتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع . وقد صدر الكتاب في برلين عام ١٩٢٣ م ، وأعيد نشره عام ١٩٧٤ م ، ويقع في ٤٣٦ صفحة .

وفي الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup> . ونظرا لطول هذا الموضوع فسنبسط إلى تقسيمه إلى حلقات ، آمليين أن نستكمله في أعداد قادمة إن شاء الله ، وذلك بهدف وضع صورة إجمالية - أمام الباحثين - للتصورات الغربية بصفة عامة والتصورات الاستشراقية بصفة خاصة في المجالات الأساسية المتعلقة بالإسلام ونبهه وتعاليمه ، لعل في ذلك ما يدفع بعض الباحثين إلى التوفر على دراسة هذا الجانب في التراث الغربي .

وإذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربي ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بترائنا ، فلا أقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التي من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا . ومن هنا تتضح حاجتنا الماسة إلى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا في السابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هذه الكتابات تمس أقدس ما لدينا ، تمسنا في أخص خصائصنا وهو عقيدتنا التي نعتر

(١) انظر الصفحات من ١١٥ إلى ١٢٥ ، ومن ١٥٠ إلى ١٥٦ ، ومن ١٦٨ إلى ١٩٦ من كتاب بفانموللر .

بها ، وتمس شخص نبينا الذي جعله الله لنا « أسوة حسنة » ، وتمس قرآنا الذي جعله الله « تبياناً لكل شيء » ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين<sup>(١)</sup> » ، وتمس سنة نبينا التي هي مصدرنا الثاني للتشريع ، وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الإسلام ونبيه قد دخلت إلى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها بأساطير العصور الوسطى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مع ذلك لا تزال وستظل جزءاً أساسياً من تراث الغربيين لا بد لنا من الاطلاع عليه ومعرفته .

ومن المعلوم أن الكتابات الغربية عن الإسلام ونبيه تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الإسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والإنصاف ، بين الاستعلاء والتزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل .

ونحن إذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه أحياناً من أوصاف شنيعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهجوم دنيء عليه وعلى دينه ، دون أن نحذف من ذلك شيئاً ، فذلك لأننا على يقين من أنه لن يجدى نفعاً إخفاء شيء من ذلك ، فهذا الكلام منشور بشتى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعمة في شيء إخفاء رأسها في الرمال ظناً منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد ، فكذلك لا يجدينا في شيء أن نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ، لأننا بذلك لن نستطيع أن نمحوه من تراث الغربيين ، أو نبعده من رفوف المكتبات في بلاد الغرب المختلفة ، أو نمنعه من الوصول إلى أيدي الباحثين .

وسيلاحظ القارئ في ثنايا النص الذي نقله هنا تكراراً لبعض الأمور ، وخاصة للأسطورة التي نسجها خيال الغرب حول وفاة محمد صلى الله عليه وسلم . والسبب في هذا التكرار يرجع إلى أن بفانمولر يعرض هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الأساطير حيث يعزف الجميع نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل هذه الأساطير في تلك الأزمنة التي احتفلت بهذا اللون من الأساطير .

(١) سورة النحل : ٨٩

والفصول المختارة التي نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف أية هوامش أو عناوين جانبية ، وسنسمح لأنفسنا بتقسيم الموضوع إلى فقرات ووضع عناوين خاصة لهذه الفقرات تحمل في أغلبها اسم الكاتب الذي تناوله كل فقرة على حدة . وبالإضافة إلى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرّف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المقتريات على الإسلام ونبيه ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .

## ترجمة وتعليقات

فيكتور شوفان :-

يقدم لنا فيكتور شوفان<sup>(١)</sup> Victor Chauvin فهرسا مفصلا للكتابات التي صدرت حول محمد وذلك في الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية أو المصنفات المتصلة بالعرب » Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes .

وفي القسم الأول من هذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، أى المؤلفات التي صدرت حول محمد في الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . وبجانب ذكره لعناوين هذه المؤلفات بكل دقة فإنه يقدم لنا أيضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير إلى أهم ما وجه إليها من نقد .

أما القسم الثاني فإنه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصة المؤلفات البيزنطية والأسبانية ومؤلفات القرون الوسطى . وفي القسم الثالث يتناول رسائل جامعية حول بعض المسائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع<sup>(٢)</sup> ، فاطمة ، نساء محمد ، شجرة النسب ،

---

(١) فيكتور شوفان ( ١٨٤٤ - ١٩١٣ ) مستشرق بلجيكي ، تخرج في جامعة لييج ، وعمل أستاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار إليه في اثني عشر جزءا ، أصدر منها أحد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر ( بولن ) الجزء الثاني عشر في عام ١٩٢٢ .

(٢) لعل القارئ يلاحظ هنا أن موضوع « الصرع » مقحم بين هذه الموضوعات التي تتحدث عن سيرة محمد صل الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا ربما يدور حول خطأ مطبعي أو خطأ في الترجمة ولكن الأمر ليس كذلك . فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، إذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنها كانت عبارة عن نوبات من الصرع تعتربه بين الحين والحين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالي فليس هناك أصلا - في زعمهم - وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل في باب التعصب الأعمى الذى هو نفسه مرض لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة أخرى عن هذا الموضوع في تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

المعجزات ، وفاة محمد ، مولده ، نبالة نسبه ، أسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه . . . الخ<sup>(١)</sup> .

وأما القسم الرابع فإنه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد في الأدب . أما ختام الكتاب فيتكون من تقييم للمؤلفات وإضافات وتصويبات وملحق ( يتضمن قائمة بأسماء المؤلفين العرب من كتاب السيرة المحمدية طبقا لما أورده بروكلمان ) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوفان جهدا هائلا في جمع المادة ، ولكن الموضوعات قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمني .

وبالمناسبة فإن كل المؤلفات حول الإسلام تكاد جميعها أن تكون مشتملة على أوصاف لحياة محمد ( ص ١٦٤ - ١٩٨<sup>(٢)</sup> ) وعلى مادة بيليو جرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

### مؤلفات أخرى :

وفي بحثه عن ( محمد وأصول علم الإسلاميات ) Lamisme يصف « رينان<sup>(٣)</sup> » الأفكار المختلفة - التي كونتها العصور والشعوب المختلفة عن محمد - وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ .

(١) أورد شوفان هذه المسائل حسب الترتيب الأبجدي في الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه عن مولده . وقد انتقد بفاموللر هذا الترتيب - كما سيأتى بعد قليل - .

(٢) هذه إشارة إلى صفحات من كتاب ( بفاموللر ) الذي ترجم منه هذه الفصول ويدور حديث بفاموللر في هذه الصفحات حول المؤلفات الحديثة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) إرنست رينان ( ١٨٢٣ - ١٨٩٢ ) فيلسوف ومستشرق فرنسي . من مؤلفاته ( ابن رشد والرشدية ) وقد ترجمه إلى العربية عادل زعير . وفيه يذهب رينان إلى القول بأنه لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو . ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع ( ألفه في أحد الأديرة اليسوعية في لبنان ) .

وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآري كما صرح بذلك في كتابه تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغانى في باريس ودار بينهما نقاش حول الإسلام في جريدة ( الدنيا ) الفرنسية . ( انظر المستشرقون للعقوى ١٩١/١ ، وزعماء الإصلاح لأحمد أمين ) .

ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا إلا بعض الإشارات .

ويقدم لنا سنوك هورجرونيه<sup>(١)</sup> S. Hurgronje في حديثه عن سيرة محمد التي قام بتأليفها جريمه<sup>(٢)</sup> Grimme - يقدم عرضا مختصرا عن أقدم كتب السيرة المحمدية ( في أوروبا ) . وينطلق هورجرونيه في ذلك من كتاب ج . هـ . هوتنجر<sup>(٣)</sup> Hottinger « تاريخ الشرق Historia orientalis » ( الصادر في زيوريخ عام ١٦٥١ ) . والهدف الذي يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقدم التاريخ العام فحسب ، وإنما هو بالأحرى يرمى إلى بلوغ هدفين آخرين : ففي مقابل الاتهام الذي وجهه الكاثوليك إلى دعاة الإصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الإسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر - من ناحية - بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، أى البرهنة على أن حجج بلارمين<sup>(٤)</sup> Bellarmin للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قد استعيرت من علم العقيدة الإسلامي . ثم رغب هوتنجر ( من ناحية أخرى ) كما فعل بيلياندر- Biblian- der من قبل ( ص ١٤٧<sup>(٥)</sup> ) بنقضه للقرآن - في الإسهام في مكافحة الخرافات

(١) سنوك هورجرونيه ( ١٨٥٧ - ١٩٣٦ ) مستشرق هولندي . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفي طليعة الرواد في دراسات الفقه الإسلامي والأصول والتفسير والحديث في أوروبا . له بحوث ودراسات عديدة عن الإسلام وتاريخه وشريعته ، وحول طابع الإسلام وانتشاره ، وإبراهيم في القرآن ، والإسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبي الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج إلى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر .

(٢) هـ . جريمه ( ١٨٦٤ - ١٩٤٢ ) كان أستاذا للغات الشرقية في مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد ( في جزأين ) ، وترجمة القرآن ، وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والإسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(٣) هوتنجر ( ١٦٢٠ - ١٦٦٧ ) مستشرق سويدي ، كان أستاذا للغات السامية في كل من زيوريخ وهايدلبرج .

ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(٤) روبرت بيلارمين ( ١٥٤٢ - ١٦٢١ ) كاردينال يسوعي ، كان في طليعة المهاجرين للإصلاح الديني الذي تم على يد مارتن لوتر وأتباعه .

(٥) يجيل بفانوللر هنا إلى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك إلى أن كتاب القسيس السويسري بيلياندر - والذي صدر عام ١٥٤٣م في ثلاثة مجلدات - يمثل الوضع الذي وصل إليه الجدل كله ضد الإسلام حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتي تمت قبل ذلك بأربعمئة عام ، وإنما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللإسلام ابتداء من عصر بطرس الموقر حتى عصر الإصلاح الديني .



المحمدية والسيادة التركية التي قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام السابقة التي كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهب المحمدي .

ونصادف أيضا نفس النفور الداخلي إزاء محمد وتعاليمه لدى الأب ماراتشي<sup>(١)</sup> الذي قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن في عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن ( ص ٢١٤ ) ، وكذلك نجد هذا النفور لدى بريدو<sup>(٢)</sup> rideaux الذي جعل كتابه ( حياة محمد ) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة وأصحاب مذهب التأليه الطبيعي والإباحيين .

### ريلاندا :

أما الكتاب الصغير الممتاز الذي ألفه هادريان ريلاندا<sup>(٣)</sup> في عام ١٧٠٥ بعنوان ( الديانة المحمدية ) De religione Mohammedica ( ص ٦٣ وما بعدها ) فإنه

(١) يجيل بفانمولر هنا أيضا إلى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشير إلى أن الأب الإيطالي لودفيج ماراتشي أمضى أربعين عاما في دراسة القرآن وكتب التفسير العربية لكي يجارب محمدا بنفس سلاحه . وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل « الضخم » الذي أنجزه ، والذي تضمن النص العربي الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش توضيحية ونقض لكل فقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر ماراتشي قبل ذلك - في عام ١٦٩١ - كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة محمد وعن القرآن ثم برهن - كما يزعم - على بطلان الإسلام وحقيقة الديانة المسيحية .

(٢) هو : همفري بريدو ( ١٦٤٨ - ١٧٢٤ ) مستشرق انجليزي . ويعلق نجيب العقيقي على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : إنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » ( المستشرقون ٤٥/٢ الطبعة الرابعة ) .

(٣) هادريان ريلاندا ( ١٧٧٦ - ١٧١٨ ) مستشرق هولندي ، كان أستاذا للغات الشرقية في جامعة أوترخت بهولندا . ومن مؤلفاته التي كان لها صدى بعيد في أوروبا كتابه عن الإسلام في مجلدين ، أحدهما عن الديانة الإسلامية والثاني حول تصويب فكرة الأوروبيين الخاطئة عن الإسلام . وقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات أوروبية . وله أيضا : تعليم المتعلم للزرنونجي ، وفي مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة في أوروبا حتى أيامه ، وله كتاب في الجهاد ، والجغرافيا والآثار في فلسطين . ( المستشرقون ٣٠٤/٢ ) .

ويجيب بفانمولر هنا إلى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين بفانمولر أن ريلاندا كان أول من قام بعرض علمي للإسلام في أوروبا . ويشير إلى ردود الفعل التي أحدثها كتاب ريلاندا عن الإسلام . ( انظر ترجمتنا لذلك في ص ١٠٧ وما بعدها في المجلد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر ) .

يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف . فالإهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلة التي لا تزال قراءتها حتى اليوم على جانب من الأهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية إلى رسم صورة أمينة للإسلام . هل من الممكن أن تجمد ديانة متناقضة - كما يصفها المؤلفون المسيحيون - ملايين الاتباع ؟

دعوا المسلمين أنفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فإنه يتحتم على المرء أن يعرف الإسلام جيدا لكي يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة . ولكن ضرورة محاربه تنمو مع كل يوم لأن علاقات الأوروبيين بالمحمديين - في تركيا وأفريقيا وسوريا وإيران وجزر الهند التابعة لهولندا - تتسع دائرتها باستمرار . وفي وسع المرء عن طريق النقاش الديني - أن يكسب المسلمين إلى صف العقيدة الحققة ، وهذا أفضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء . والمعرفة الدقيقة بالإسلام وأتباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الإحساس بالشكر لله الذي أنعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم يدر بخلد ريلاند أن يقوم بتمجيد الإسلام . فهو بالأحرى يستفظعه - كما يوضح هو ذلك<sup>(١)</sup> - إنه يريد فقط أن يتعرف المرء على الإسلام تعرفا حقيقيا ، وألا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

بولانفلييه : -

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من أمثال ماراتشي وبريدو اللذين لم يستطيعا أن يريا في الإسلام أى شيء طيب . ففي عام ١٧٣٠ ظهر في لندن كتاب ( حياة محمد ) - وهو كتاب لم يكتمل - من تأليف الكونت بولانفلييه o Boulainvillier وقد

---

(١) نعتقد أن صدور مثل هذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر للرماد في العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التي لم تقنع بمثل هذه المبررات ، فحزمت تداول الكتاب ، لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس ( راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والحلقة الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ - ٣٥ ، الدوحة ١٤٠٤هـ ) .

مجد المؤلف فيه مؤسس الإسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، وأحل دينه في جوانب كثيرة في محل أرفع من المسيحية المألوفة .  
ولم يكن الأمر الذي دفع هذا الكونت إلى هذا المديح لنبي مكة هو فقط المحسة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه - بمساعدة بعض المؤلفات الأوروبية - نبيا يرضى حاجة في نفسه ، وكان يرى في محمد نبيا قام بتمديد شعبه وأنشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفليه بسرور خفى أن محمدا ، في الوقت الذي يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية أشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت في رواية بولانفليه سرعان ما اكتشفه معاصروه أيضا .<sup>(١)</sup>

### جان جانييه : -

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا جان جانييه<sup>(٢)</sup> Jean Gagnier يتجه ضد بولانفليه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفي عام ١٧٢٣ قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد - حديثة نسبيا - إلى اللغة اللاتينية . وبعد قيام الكونت بولانفليه بنشر روايته شعر جانييه بأنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة - حسب المصادر المتوافرة لديه -

(١) عندما نشر بولانفليه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الإلهية ( انظر الشرق والإسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقي ص ٢١ ) ، ويحاول بغامولر هنا أن يقلل من شأن النظرة الإيجابية لبولانفليه إلى الإسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها إلى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلي سنجد أيضا جانييه يصف محاولات بولانفليه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اقترب كاتب غربي من رؤية حقيقة الإسلام انبرت الأصوات من كل مكان في الغرب تتهمه بالمبالغة أو الغرض أو العدا للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هذا من العلم والموضوعية في شيء ؟  
ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية إلا اذا أبرزت مثالب وأظهرت نقائص تلصق بالاسلام ؟  
إن هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمي أو أخلاقي .

(٢) جان جانييه ( ١٦٧٠ - ١٧٤٠ ) كان أستاذا للعبرية ثم العربية في أكسفورد . قام بترجمة رسالة الرازي عن الجلدري ، ونشر من كتاب أبي الفداء « مختصر تاريخ البشر » ( سيرة النبي ) متنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد في جزأين بالفرنسية ( امستردام ١٧٣٢ ) . راجع : المستشرقون ٤٥/٢ .

ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكي يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحماس الحاقد لكل من ماراتشي وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانفلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتاب جانييه ، التي يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغي أن يفهم المرء من « حياته <sup>(١)</sup> » .

## سيل :-

أما سيل <sup>(٢)</sup> Sale الانجليزي فإنه في مقدمته التمهيدية التي صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول في البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر إليه على أنه مضلل .

(١) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة صريحة وتحيزا مبدئيا ، إذ ما معنى أن يقدم جانييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟

إن الأمر هنا ليس له لدينا إلا تفسير واحد ، وهو قصد توجيه القارئ من بادئ الأمر لقراءة الكتاب في ضوء هذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانييه على القارئ ويضع قيادا على حريته ، ويقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم . وهذا ليس من العلم ولا من الإنصاف في شيء ، ولا يمت إلى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانييه بعد ذلك أنه - كما يقول بفالمولر ص ١٧١ - كان يعتمد في كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعهم يتحدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبنا إضافة أى شيء من آرائه ، وأن كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسلمون ويعتقدون .  
فالتناقض واضح بين المقدمات والتائج ، وقصد الإساءة هو الذي يوجه جانييه في كتابه . وهكذا نرى أن « الحياذ » الذي يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(٢) جورج سيل ( ١٦٩٧ - ١٧٣٦ ) مستشرق انجليزي ، ترجم القرآن إلى الانجليزية ونشرت الترجمة في لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواشي وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الإسلامي تضمنت الكثير من الإفك واللغو والتجريح .

أما فولتير<sup>(١)</sup> فقد كتب روايته المأساوية « محمد أو التعصب » دون أن يراعى الحقائق التاريخية . وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ . ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية تارتوف<sup>(٢)</sup> Tartuffe ممسكا سلاحا في يده ، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعبر محمدًا هذا الدور . ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن محمدًا يمثل التعصب والتضليل الديني<sup>(٣)</sup> .

وهكذا كانت أوروبا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس التاريخي الحقيقي الذي يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما تماما .

---

(١) فولتير ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) فيلسوف وأديب فرنسي شهير ، يعد قطب عصر التنوير في فرنسا .

(٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق في إحدى مسرحيات الأديب الفرنسي الشهير موليير ( ١٦٢٢ - ١٦٧٣ ) والتي تحمل نفس الاسم أيضا .

(٣) إنه لأمر غريب حقا أن يلجأ فولتير إلى التشهير بالنبي عليه الصلاة والسلام جاعلا منه في هذه الرواية التي مثلت على المسرح « منافقا لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدفعه النزاع الحسية والتعطش للدماء الخ » وهو يعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية . ولكن فولتير أراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة « إياك أعنى واسمعى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانمولر : « لكن فولتير لم يرد إطلاقا بمأساته أن يصور شخصية محمد التاريخية ، وإنما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتي ، وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية في مدينة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قلمتها « الكوميدى فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركي لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا إليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها حينذاك ( انظر : الشرق والسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقي ص ٢٣ ) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير في مقاله Essai Sur les moeurs يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدًا بأنه « الرجل العظيم الذى جمع في شخصه بين الفاتح والشارع والحاكم والكاهن ، والذى لعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض » ( انظر بفانمولر ١٧٢ ) . وفي وسط هذا البحر المتلاطم بأموج التخبط الواضح والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية النزوية . وبما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حينًا ومن منكرى النبوات عامة في أكثر الأحيان .

## جوستاف فايل : -

وعندما نشر الأستاذ جوستاف فايل<sup>(١)</sup> في عام ١٨٤٣ كتابه عن سيرة محمد كان في وسعه أن يقول بحق في مقدمته إن آخر أسلافه الذي كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانيه الذي ألف كتابه قبل ذلك بقرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة إلى الأمام ، وذلك بسعيه في رسم صورة أكثر تاريخية لأصول الإسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عددا مما لم يكن متوافرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا في خلال الخمسين عاما التي مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي أداها فايل بوصفه أول من قام ببحث نقدي تاريخي حول هذا الموضوع . والنتيجة التي ينتهي إليها فايل في كتابه هي أن محمدا يمكن أن يرى أيضا في أعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

## كوسان دي برسيغال : -

ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلا إلى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح كوسان دي برسيغال<sup>(٢)</sup> Caussin de Perceval في « مقالاته » أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعا ذكيا أو عبقرية طموحة . لقد كان

---

(١) يأتي التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقي ( المستشرقون ٢/٢٦٦ ) تحت اسم سيمون فايل ، ولعله سهو ، فالمعلومات الواردة تحت هذا الاسم تخص جوستاف فايل ( ١٨٠٨ - ١٨٨٩ ) وهو مستشرق الماني شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية . ومن مؤلفاته التي تعنينا هنا الكتاب الذي يشير إليه بفانولر وهو « محمد النبي : حياته وتعاليمه » شتوتجارت ١٨٤٣ .

(٢) هو : أرمان كوسان دي برسيغال ( ١٧٩٥ - ١٨٧١ ) كان أستاذا للعربية في معهد فرنسا وعضوا في المجمع اللغوي . ومن بحوثه : وقعة بدر - مرحلة من حياة الرسول ( المجلة الاسبوعية ١٨٣٩ ) وياكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات ( ١٨٤٧ ) وقد تناول فيه العرب قبل الإسلام ثم عصر النبي ، ثم انصواء القبائل تحت زاية الاسلام - ( المستشرقون ١/١٧٧ ) .

محمد - حسب رأيه - على وجه الخصوص إنسانا مقتنعا بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه .

وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكتاب أن يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة إلى ما كان متوافرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جدا مما أصبح متيسرا لنا في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة<sup>(١)</sup> . وبالإضافة إلى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان - مثلما عرف أسلافهما - أن المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية أو لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة أكثر من ذي قبل الجيد منها من الرديء . ولكنها لم يلاحظا ملاحظة كافية أن سيرة محمد - على الأقل ما ينتسب منها إلى الفرق الإسلامية - قد تطورت وأعيد تشكيلها بنفس القدر الذي تطور به الدين المحمدي نفسه ، الأمر الذي يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم إلا على أساس من الدراسة العميقة سريخ « الكنيسة » المحمدية<sup>(٢)</sup> .

---

(١) يلاحظ أن باهمولر قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢) استخدم باهمولر هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الإسلام وعن الدراسات الإسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد في الإسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص في الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن هناك حتى عصرهما من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين « تعاليم محمد » وبين « الإسلام » الذي انبثق عنها<sup>(١)</sup> . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ أن يتحدث عن « دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هي القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخي طبقا لأقدم الأحاديث . وبدلا من معرفة هذا الفرق راح المرء يخلط بين القديم والحديث وراح يمدح محمدا أو يذمه لأمر لم يفكر فيها محمد على الإطلاق .

وقد تم أخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التي ظهرت في وقت واحد تقريبا لكل من نولدكه وموير واشبرنجر .

---

(١) يشير بفالمولر هنا قضية غريبة ، حيث يفهم أن الإسلام شيء وتعاليم محمد شيء آخر ، فدين محمد وهو الإسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار أن الإسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود في التعاليم الأصلية للنبي عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب في الفهم لا أساس له . فالإسلام وتعاليم محمد شيء واحد ومصدرهما هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

أما ما طرأ على الفكر الإسلامي ( وليس على الإسلام ) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق إسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الإسلام أو تعاليم محمد في شيء ، لانه يتعلق فقط بأفهام أصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الإسلام مسئولية ما قد يكون في هذه الأفهام في بعض الأحيان من خلط أو اضطراب في الفهم .

وعلى ذلك فإن التفرقة الصحيحة التي كان على بفالمولر أن يدركها هي بين الإسلام والفكر الإسلامي ، على اعتبار أن الإسلام وحى الله لنبيه ليقوم بتبليغه وتبيينه للناس « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » أما الفكر الإسلامي فهو فكر إنساني يخطئ ويصيب ويعتريه التطور والتغير . وقد فتح الإسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد في الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعا على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يهد في المجتمع الإسلامي من مشكلات .



أما موير<sup>(١)</sup> Muir فإنه على الرغم من أرثوذكسيته الانجليزية فإنه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل ( يقصد محمدا ) ظهر له أنه كان ضحية للشيطان<sup>(٢)</sup> . وعلى الرغم من أن موير كانت تنقصه المادة الضرورية لسيرة حقيقية فإن كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحاث النقدية التي لها قيمة باقية .

شبرنجر :-

أما كتاب شبرنجر<sup>(٣)</sup> Sprenger « حياة محمد وتعاليمه » فإنه يبرهن من عنوانه على أن المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الإسلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التي قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلها وزن وحده هو الذي قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب شبرنجر ( انظر : محمد في المدينة لفيلها وزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها ) . وقد خلص اشبرنجر إلى الاقتناع بأن

---

(١) السيروليم موير ( ١٨١٩ - ١٩٠٥ ) مستشرق اسكتلندي ، عمل في الهند ثم اختير رئيسا لجامعة أدنبره . ومن مؤلفاته : حياة محمد ﷺ في أربعة أجزاء ، وقد صدر في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضا حوليات الخلافة ، ومصادر الإسلام ، ودولة المالك في مصر .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى مثل هذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لمشركي مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد في زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة في صورة أخرى .

(٣) الويس شبرنجر ( ١٨١٣ - ١٨٩٣ ) مستشرق نمساوي الأصل ، تخرج بالجنسية البريطانية عام ١٩٣٨ ، عمل في الهند ثم عمل أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربي على عهد الخلفاء ، وحياة محمد في ثلاثة أجزاء . وقد صدر الجزء الأول في ( الله أباد ) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية في برلين من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألماني المعاصر « رودى بارت » على كتاب شبرنجر ( حياة محمد ) بأنه كتاب جاء تخيبا للامال في أكثر من ناحية وأنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمي ( انظر : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى ماهر ص ٢٣ ) .

محمدًا كان إنسانًا هستيريًا<sup>(١)</sup> . فلنترك جانبًا ضعف الوقائع التي يستند إليها التشخيص ! إنه على كل حال سيحتتم على المرء أن يعترف بأن القيمة الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذي يختلف فيه عن الهستيريين الآخرين ، وليس في الحالة المرضية التي يشترك فيها معهم .

(١) سبق أن أشرنا في تعليق سابق إلى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحي للنبي لم تكن إلا نوبات من الصرع تعتره ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان مصابًا بالهستيريا . وأساس هذه المزاعم كلها يكمن في محاولة استبعاد القول بنبوته وإنكار تلقيه الوحي من عند الله . وما دام هذا هو الموقف البدئي لهذه المزاعم فلن يستطيع القائلون بها فهم ظاهرة الوحي . ولو طبقنا هذه المزاعم على جميع الأنبياء والمرسلين لأبطلنا الأديان السماوية جميعًا .

وهذا الموقف ليس أمرًا جديدًا فقد سبق لمشركى مكة أن اتخذوا موقفًا مماثلاً من محمد صلى الله عليه وسلم ، كما اتخذ المعاندون من أقوام الأنبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يجبرنا أن نعلمنا على الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت إليهم تهمة الجنون من أقوامهم . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « وقالوا يأبيا الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » ( الحجر : ٦ ) وقوله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » ( الذاريات : ٥٢ ) ، وقوله : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » ( الدخان : ١٤ ) ، وقوله « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » ( القمر : ٩ ) ، ولسنا هنا في حاجة إلى مناقشة مستفيضة لأسطورة الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف أعراض هذين المرضين وما لهما من آثار في شخصية المصاب بأى منهما ، ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حتمًا أن هذه المزاعم لغويًا باطل وافتراء كاذب لا يستحق أن يأخذ المرء مأخذ الجد .

وقد أساء المستشرقون عن جهل أو عن عمد فهم الظواهر التي كانت تصاحب الوحي عند نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم من أنه - كما يقول الرسول نفسه - كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة : « رأته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليترعد عرقًا » كما روى ذلك البخاري في صحيحه في حديث مشهور .

ولو تأمل الباحث المنصف في أن تلقى الوحي يعنى الانسلاخ عن حال البشرية إلى حال الملكية ، لعرف أن هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحي ليست إلا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتاب البيزنطيون ، وبوجه خاص ثيوفانس Theophanes ، هم أول من أذاع في الغرب أسطورة الصرع . ( انظر ص ٥٢٢ من : ( Handwoerterbuch des Islam ) فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذي تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الإسلام ، وإليهم ترجع أغلب الأساطير التي شاعت في الغرب حول محمد صلى الله عليه وسلم في العصور الوسطى . ويعترف المستشرقون أنفسهم بأن البيزنطيين كانوا مصدرًا غير موثوق به فيما يتعلق بالإسلام ، كما يعرض علينا ذلك بفاغولر في موضع آخر من هذا البحث .

نولدكه : -

وأما كتاب نولدكه<sup>(١)</sup> « تاريخ القرآن » فإنه يفى بكل متطلبات العلم . إنه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الإسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال . أما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فإنه كتاب شعبي ومختصر ، وهو يقينا أفضل كتاب من هذا النوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبي .

الكم والكيف : -

ومنذ أن مهد كل من موير واشبرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة إبداعية عن حياة محمد . وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجات متفاوتة في الفهم ، وعرضوها على الجمهور في صورة دراسات لا تحصى ، إما دون أى تغيير وإما بإضافة شيء من عندهم . وهذا أحيانا ما يكون أكثر سوءا .

ويظهر المؤلفات المشار إليها ثما عدد المواد المتوافرة لسيرة محمد . وقد أصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربية هامة بأعداد كبيرة . ومن مؤلفات العلماء الأوربيين يكفى أن نذكر هنا بكتاب جولدتسيهر<sup>(٢)</sup> « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن<sup>(٣)</sup> « لمحات وأعمال أولية » .

---

(١) تيودور نولدكه ( ١٨٣٦ - ١٩٣٠ ) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الإسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر عام ١٨٦٣ .

(٢) اجناتس جولدتسيهر ( ١٨٥٠ - ١٩٢١ ) مستشرق يهودي من أصل مجري ، يعد من كبار أئمة الدراسات الإسلامية في أوروبا . كان واسع الاطلاع غزير الإنتاج بلغات مختلفة . وقد عرف قراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة في الإسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامي .

(٣) فيلهاوزن ( ١٨٤٤ - ١٩١٨ ) مستشرق ألماني ، له دراسات إسلامية عديدة منها : السيادة العربية ، والحوارج والشيمة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وقد ترجمت هذه الكتب الثلاثة إلى العربية وله أيضا : محمد في المدينة ، والتمهيد للتاريخ الإسلامي في ستة أجزاء ، ودستور المدينة أيام النبي ، والأحزاب المعارضة في الإسلام قديما وحديثا وسياسة ، وغير ذلك من دراسات ( المستشرقون ٢/٣٨٦ وما بعدها ) .

وكل من يشعر لسبب أو لآخر أنه يتحتم عليه أن يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع أن يقتصر اليوم على النظر إلى الأمور القديمة من زاوية جديدة ، وإنما يجب عليه أن يضيف شيئاً جديداً إلى ما أتى به سابقوه .

وإلى هذا الحد كان العرض الذي قدمه سنوك هورجرونيه في عام ١٨٩٤ .

بيير مارتينو : -

يقدم لنا بيير مارتينو Pierre Martino نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد في فرنسا ، وذلك في بحثه عن « محمد في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر » ، وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسى في القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر في باريس عام ١٩٠٦ . وفي الفصل الأول من هذا البحث الذي جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط في محمد ، مترسماً في ذلك خطأ دانكونا Dancona وباسيه R. Basset ودوتيه<sup>(١)</sup> و قد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين في عصور الحروب الصليبية أثرها في عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبي وأعماله . ففي الرواية التي كتبها ألكسندر دوبون A. du Pont عن محمد « Roman de Mohomem » يظهر محمد بوصفه أحد قطاع الطرق ،

---

(١) سياتى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وباسيه ودوتيه في نهاية هذا البحث .

وقد أصابه مس من الشيطان ويقوم بفعل كل نوع من أنواع الأفعال الدنيئة والتضليل<sup>(١)</sup> .

أما كتاب القانون لدى المسلمين *Livre de la loi au Sarrasin* فإنه يتضمن تجميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية . وحقيقة الأمر هي أن ما كان يعرفه المرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات . وقد كان ذلك تقريبا هو كل شيء . وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان محمورا . وليس من العجيب إذن أن المحمديين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ! ولكي يجعل المرء من النبي المزيف شخصية مكروهة تماما فقد عمدوا إلى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، أى زنديقا مارقا . أجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ! وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس في المتع والخديعة<sup>(٢)</sup> .

أما الفصل الثاني ( من بحث مارتينو ) الذي يحمل عنوان « الدراسات الإسلامية الأولى » فإنه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بوديه *Michael Baudier* « تاريخ

---

(١) سيان الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية في موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا - كما سيذكر بفاغوللر فيما بعد - أن أساس هذه الرواية يتمثل في الأساطير التي روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتي انتشرت في الغرب في العصر الوسيط . وهي أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالإسلام ونبيه . ويعترف بفاغوللر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يتعدى أمورا قليلة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات ، فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع في منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة غريبة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارئ كان ينتظر منا أن نحذف مثل هذه الأباطيل ، ولكننا نحيل القارئ الكريم إلى ما كتبناه عن ذلك في مقدمة هذا البحث . ومن ناحية أخرى لا بد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا في تلك العصور الوسطى التي كانت تعد بحق عصورا مظلمة *The dark Ages* . باعتراف الغرب نفسه ، في الوقت الذي كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم ، فلعل في ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

(٢) انظر الهامش السابق .

ديانة الأتراك ومولد وحياء ووفاء نبيهم المزيّف محمد<sup>(١)</sup> « الصادر في ( باريس ) عام ١٦٢٥ ( وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١ ) وقد كان بوديه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتينو بعد ذلك ترجمة دوريه<sup>(٢)</sup> SDu Ryer للقرآن .  
أما الفصل الثالث الذي جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للإسلام » فإنه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال<sup>(٣)</sup> وماراتشي

(١) لقد كان بوديه يهدف بكتابه - كما يقول هو نفسه - إلى « الكشف عن أباطيل وورذائل نبي الأتراك ، والكشف عن تضليله وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن أن ينتظر أحد بعد ذلك أن يقول بوديه كلمة حق في محمد ؟ لقد كان كاثوليكيًا متعصبًا يستقى معلوماته - كما يقول بفانمولر - من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تمحيص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الإسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبيين طوال القرن السابع عشر ( انظر بفانمولر ص ١٦٨ ) .

(٢) تعد ترجمة دوريه للقرآن التي ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دوريه مدة طويلة فنصلا لبلاده في مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى قرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها إقبالًا كبيرًا . ولم يكن دوريه منصفًا للإسلام بأي حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها إلى أن قام سافاري Savary بانجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٣) بليس بسكال Blaise Pascal ( ١٦٢٣ - ١٦٦٢ ) هو الفيلسوف الفرنسي المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين Pens'ees Sur la religion في باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى في محمد العدو اللدود للكنيسة ، ولهذا كان حريصًا كل الحرص على محاربته ، ففي كتابه السابق يتناول محمدًا صلى الله عليه وسلم في تسع شذرات من بين الشذرات التي يضمها هذا الكتاب ، ويعقد في أحدها مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : إن محمدًا لم يجر التنبؤ بظهوره في العهد القديم في حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترب القتل في حين كان المسيح يدع أتباعه يقتلوه ، ومحمد كان يجرم القراءة في حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحًا دنيويًا في حين كان المسيح مغلوبًا على أمره وانتهى به الأمر إلى الصلب . الخ . . وكان بسكال يعتقد لدى محمد عدم إتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار ( كما هو الشأن في المسيحية ) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التي أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الحسية للجنة ، ويقول إنه لم يجد في هذا الدين سببًا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أي أمانة من أمارات الحقيقة . ( راجع بفانمولر ١٤٩ ) .

هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان في موقفه من الإسلام ونبيه يعتقد كل هذه الصفات ، ويرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الإسلام ونبيه شأنه في ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسه وللحقيقة وللحقيقة بصفة عامة .

ويريدو .

أما رد الاعتبار لمحمد - كما يتناول ذلك الفصل الرابع الذي يحمل عنوان « رد الفعل البروتستانتي والفكر الحر » - فقد كان عملا من أعمال القرن الثامن عشر . فبعد العمل الذي قام به كل من هوتنجر وموني Moni قاد كل من ريلاند وجانييه إلى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد وأعماله لدرجة أن الكونت بولا نغلييه رأى في محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما . وقد خصص المؤلف الفصل الخامس لموضوع « محمد في الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج<sup>(١)</sup> وفولتير .

وفي الفصل السادس الذي جاء بعنوان : « محمد والموسوعيون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » وأعمال الموسوعيين . ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سافاري للقرآن ، ويأتي بعد ذلك ملحقان هما :

١ - المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالإسلام .

٢ - ترجمات القرآن في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

مينور :

أما مينور فإنه يقدم لنا في الفصل الأول من بحثه ( محمد لدى جوته<sup>(٢)</sup> ) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط في محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنه مما هو منتشر على نطاق واسع . وقد استطاع جوته

(١) آلان رينيه ليساج ( ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ) أديب فرنسي .

(٢) نشر مينور هذا البحث في فيينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

في القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين ( في محمد ) في تاريخ الأحداث لجوتفريد وفي المقالة المطولة في قاموس بايل .  
وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات الرآن وتاريخ طبعاته ، وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت بإحراق نسخ طبعة القرآن التي صدرت في البندقية عام ١٥٣٠ ، وفي حين أن البابا الكسندر السابع ( ١٦٥٥ - ١٦٦٧ ) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضاً ترجمته ، فإن مضمون القرآن قد أصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتى ، ولكن مع إضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية . وقد أعاد بيلياندر - خليفة تسفنجلي<sup>(١)</sup> نشر الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن التي أنجزت عام ١١٤٣م بإيعاز من الأب بطرس الكلونى وذلك بعد أربعمئة عام من صدورها ، وأضاف إليها عديداً من الردود المفندة .

وقد توالى بعد ذلك الترجمات التي قام بها كل من شفايجر<sup>(٢)</sup> ودورييه ويوهان لانجه ونريتر وماراتشي

وقد حدث تحول في الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت ، ويوجه خاص عن طريق ريلاند ، وقد أخذ جانبيه موقفاً وسطاً بين الاتجاه اللاعن الذى تبناه كل من ماراتشي وبريدو من ناحية ، والاتجاه المجدد لمحمد والذي يمثله بولانفلييه من ناحية أخرى . وقد قص علينا جانبيه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات وأساطير باذلاً قصارى جهده في استخدام مصادر جيدة ، وغالباً ما كان يقتبس منها حرفياً . وبعد ذلك بعامين ( أي عام ١٧٣٤ ) ظهرت في انجلترا ترجمة إنجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة في القرن الثامن عشر .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد في عصر التنوير :  
ويصادفنا هنا في عرضه أسماء كل من لينتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول

(١) أولريش تسفنجلي ( ١٤٨٤ - ١٥٣١ ) قطب الإصلاح الدينى في سويسرا ، سقط قتيلاً في الصراع ضد الكاثوليك .

(٢) قام سالون شفايجر بانجاز هذه الترجمة الى الألمانية عن ترجمة ايطالية معتمدة أساساً على النص العربى . وقد ظهرت

ترجمة شفايجر للقرآن في ثلاثة أجزاء في مدينة نورنبرج عام ١٦١٦ وام ١٦٢٣ .



وهاجيدورن وجلايم وتورين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » .  
وهناك أيضا ترجمتان ألمانيتان للقرآن قام بترجمتهما من الأصل العربي مباشرة كل  
من ميجرلين<sup>(١)</sup> Megerlin وبويزن<sup>(٢)</sup> Boysen وقد لقيتا حقهما من التقدير .  
ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن جييون Gibbon ، وهردر ،  
وأولزور Golzner .

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل في الفصل الثاني شذرات فرانكفورت  
لجوته ، وفي الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد . وفي الفصل  
الرابع يتحدث عن الخطة في « الشعر والحقيقة » لجوته . ثم يتناول أخيرا في  
الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية ، وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات  
ببليوجرافية قيمة بالاضافة إلى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات  
جوته<sup>(٣)</sup> .

### فولفل :

أما أدولف فولفل Adolf Fohluill فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذي  
قدمه مينور ، وذلك في بحثه المفصل « ألمانيا والإسلام وتركيا »<sup>(٤)</sup> .

(١) ظهرت هذه الترجمة في فرانكفورت عام ١٧٧٢ .

(٢) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن في هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ واعيد طبعها عام ١٧٧٥ .

(٣) جوته ( ١٧٤٩ - ١٨٣٢ ) هو أعظم الشعراء الألمان على الإطلاق ، وقد كان منصفًا للشرق والاسلام  
ونبيه ، قرأ القرآن بامعان في ترجمتين احدهما لاتينية والأخرى ألمانية ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثره بالقرآن بوجه  
خاص في الديوان الذي أسماه « الديوان الشرقي الغربي » . ومن بين ما نقرؤه له في هذا الديوان قوله : لله المشرق  
ولله المغرب ، وفي راحته الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى  
وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا .

وفي بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « منم حماة الانسان في دنياه أن يتمصب كل منا لما يراه ،  
وإذا الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على إعجابهِ وتقديره لنبي الاسلام ، مما يدل على سعة أفقه وسمو  
فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعوبي والديني . ( انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك في كتاب :  
الشرق والاسلام في أدب جوته » للاستاذ عبد الرحمن صدقي ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم

٧ ( ١٠ )

(٤) نشر هذا البحث في العدد رقم ٢٢ من مجلة أيفريون عام ١٩١٥ ، ص ١ - ٢١ ، وص ٢٢٥ -

٢٦٧ .

وفي فصل تمهيدي يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيا والغرب عبر القرون . وبعد ذلك يصف لنا ( في فصل آخر ) الخطر التركي كما يصوره الشعر الألماني والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر ، وفي الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الإسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية . وهنا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التي قام بانجازها هينكلمان<sup>(١)</sup> ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الأولى للقرآن ، ويبين كيف أن العداء ضد الإسلام قد أخذ يضعف بالتدرج ويحل محله - في تزايد مستمر - حسن النية لدى مؤلفي عصر التنوير ( هادريان ريلاند ، لينتز ، ليسنج . رايماوس ) .

وفي الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضاً مختصراً لتاريخ الإسلام في مرآة العلم والشعر أثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، وأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهنا يقوم أولاً - بناء على دراسات متخصصة - بتقدير نشاط المستشرق دافيد فريديريش ميجرلين : الفورتمبرجي ( نسبة إلى مقاطعة بألمانيا ) الذي يرجع إليه الفضل في القيام بإنجاز أول ترجمة ألمانية للقرآن على أساس النص العربي ، وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار - هررد ، وجوته ، وفيلاند ، وشيللر - من الإسلام ومن مؤسسه .

وبالإضافة إلى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفي لكل من أولزرنر وهامر بورجشتال<sup>(٢)</sup> ، وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينسى ، وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقي الغربي » لجوته ،

(١) كان القس ابراهام هنكلمان من هامبورج هو اول من تجرأ على نشر النص القرآني بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد إحراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن في أوربا عام ١٥٣٠ في البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظر الذي قرره البابا الكسندر السابع ( ١٦٥٥ - ١٦٦٧ ) والذي كان يقضي بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

(٢) جوزيف فون هامر - بورجشتال ( ١٧٧٤ - ١٨٥٦ ) مستشرق نمساوي ، طوف في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وإيران وتركيا ، وأنشأ في فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات . له دراسات وافرة ولاسيما في تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ! وقد حقق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية . أصدر في فيينا أول مجلة استشارية متخصصة في أوربا هي مجلة ( يتابع الشرق ) التي صدرت من عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ . وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية في عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات . ( المستشرقون ٢/٢٧٤ وما بعدها ) .

الأعمال الشعرية المتعلقة بالشرق لشعراء من بينهم روكرت<sup>(١)</sup> Rokert وبلاتين<sup>(٢)</sup> Blaten وكذلك النشاط العلمي لكل من هامربورجشتال وجورج فريدريش داومر Daumer وعدد من المستشرقين الألمان .

أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بين ألمانيا وتركيا من أمثال مولتكه وكريستيان فريدريش فورم وفريدريش لست<sup>(٣)</sup> . أما الفصل الختامي فإنه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب الإسلامية في بداية القرن العشرين .

### هاز :

إن ما أخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحسية لمحمد عبر تحولات العصور<sup>(٤)</sup> - فالعرض التصويري للإنسان كان محرماً بالنسبة للمحمديين - وإنما أخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل كما صورت في رموس الناس على مدى العصور . وذلك لأن أفضل سبيل - في رأي المؤلف - لتكوين حكم على محمد يتمثل في استحضار الأحكام الأساسية التي ذاعت خلال تحولات العصور وعبر القرون عن هذا الرجل ذى الأهمية التاريخية .

وفي البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم<sup>(٥)</sup> ، وبعد ذلك يتحول هاز إلى الحديث عن الآراء التي تكونت عن محمد خارج العالم الإسلامي .

وعلى رأس التفاصيل التي أوردها « هاز » نجد تقديراً لدراما فولتير

(١) فريدريش روكرت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) شاعر ألماني ، اهتم بالأدب العربي وعمل استاذاً للغات الشرقية في إرنلجن وبرلين . له دراسات حول مقامات الحريري ، وطرفة بن العبد ، وعمر بن كلثوم ، وامرئ القيس ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير ، وقد ترجم إلى الألمانية كثيراً من هذه الآثار الأدبية .

(٢) بلاتين (١٧٩٦ - ١٨٣٥) شاعر ألماني .

(٣) فريدريش ليست (١٧٨٩ - ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد الألمان .

(٤) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر العصور » في مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥) من المعروف أن هذا التباين في الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه لم يظهر إلا بعد بعثته ودعوته إلى دين الله ونبذ عبادة الأصنام ، أما قبل البعثة فقد كان هناك إجماع على تقديره ، وشاع حينذاك وصفه بالصادق الأمين .

« التعصب أو محمد النبي » ولمحة - عن انتصارات الإسلام على العالم المسيحي .

وبعد ذلك يقدم لنا ( هاز ) لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحي ضد محمد وضد القرآن بدءاً من يوحنا الدمشقي<sup>(١)</sup> حتى نهاية القرن السابع عشر . وفي أثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كان الحكم على محمد حكماً سيئاً إلى أبعد الحدود . إذ يوصف بأنه دجال ونبي مزيف ومؤسس طائفة<sup>(٢)</sup> وتجسيد لشتى ألوان الرذائل والمنكرات .

أما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولاً من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاندا ، وسيل . وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولي شخصية محمد اهتماماً كبيراً . وهنا يعرض ( هاز ) تصورات كل من فولتير وبايل وجييون وليبنزوليسنج وفولفنبوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة في عرض تصورات ( جوته ) عن النبي العظيم .

وأخيراً جاء القرن التاسع عشر بعرض تاريخي نقدي لحياة النبي العربي وأعماله ، وقد وضع حجر الأساس في هذا السبيل ( فايل ) بكتابه عن سيرة محمد ، وقد تبع ذلك في الستينات من القرن الماضي المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من ( موير ) واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتأخرين من أمثال كريل وأوجست موللر .

(١) يوحنا الدمشقي ( ٦٧٦ - ٧٤٩ م ) عالم مسيحي عاش في ظل الدولة الأموية وخدم في القصر الأموي ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاوره مع مسلم » ، وكتاب « إرشادات النصارى في جدل المسلمين » .

( انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ١٩ ) .

(٢) يعنى مؤسس طائفة منشقة على المسيحية .

وفي نهاية البحث يقدم ( هاز ) عرضاً قصيراً لأهم المؤلفات الحديثة عن محمد والإسلام . والأمر الذي له أيضا قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة .

تور أندريه :

يبحث تور أندريه<sup>(١)</sup> - على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة - التصورات المتعلقة بشخص محمد في تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبي . وفي مقدمة دقيقة للغاية يتناول أندريه مسألة المكانة التي طالب بها محمد نفسه لشخصه في النسق الديني . فمن ناحية كان محمد يحس أنه ليس إلا مبلغاً للوحي الألهي الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه في الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية - وبصفة خاصة انتصاره في بدر - كان له تأثير قوي على وعي النبي باصطفائه ، وأخيراً أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية - أصبح بالتدريج يأتيه أيضاً مرتبطاً بوعي عادي ، وهذا الارتباط جعل الوحي أخيراً واقعاً إلى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على

---

(١) تور أندريه ( ١٨٨٥ - ١٩٤٧ ) مستشرق سويدي ، عمل أستاذاً للعلوم الدينية في جامعي استوكهلم وأوبساله - ومن مؤلفاته : بحوث في الكنائس النسطورية في الحيرة واليمن وأثرها في الإسلام ، وله دراسات حول : القصص في الإسلام ، والصوفية ، والنصرانية والإسلام ، والإسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟ أما كتابه عن سيرة الرسول ( شخص محمد في تعاليم وعقيدة أتباعه ) فقد كان رسالته للدكتوراه التي تقدم بها الى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الإيطالية والانجليزية والألمانية ، وهو الكتاب الذي يتحدث عنه بفانمولر هنا . ( المستشرقون ٣/٣٣ ، بفانمولر ١١٣ ) .

أنها وحي الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلها في مكانة واحدة<sup>(١)</sup> .

وقد بدأ محمد أيضا متساعماً إلى درجة معينة إزاء ما كان يقدمه له أصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافي الذي كان يقدم في العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة أخيرة للتطور الذي وصل إليه الوعي النبوي لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وأن دينه قد قدر له أن يحقق النصر على كل الديانات الأخرى ، وأنه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وأفضل الأنبياء وآخرهم ، وأنه كان مقصد تطور النبوة كله في حقيقة الأمر ، وعلى هذا النحو كان في وسع التقديس الذي نشأ فيما بعد للنبي أن يجد في

(١) لقد بدأ وعى محمد باصطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو فيها الى دين الله ، ومن منطلق وعيه التام باصطفائه وبأن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمة أبي طالب : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهكذا لرى أن هذا الوعي بالاصطفاء لم يكن - أو لم يزد - نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التي أمره الله فيها أن يصدح بدعوته ويعلمن على الناس رسالته ، فخرج إليهم قبل انتصار بدر باني عشر عاما يقول لهم : « انا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » . وعلى الرغم من هذا الوعي القوي بالاصطفاء ، فإنه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . وقد ورد تأكيد هذا المعنى في القرآن في اثني عشر موضعا على الأقل نصفها مدنى والنصف الآخر مكى . وقد كان الوحي منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبي النفسية فقد روى البخارى في صحيحه عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبي الى اعتبار ما كان يدوله من أفكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله اذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا سند له من الواقع . فمحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة ويعددها هو الصادق الأمين الذي لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة القمم في السلوك الفاضل الذي استحق به أن يمدحه الله في قوله : « وانك لعل خلق عظيم » .

أما ان محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلها في مكانة واحدة فعلى ( أندرية ) يعنى هنا ما ورد في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » - النساء : ٨٠ - ؛ وقوله « أطيعوا الله ورسوله » الأنفال : ٢٠ - ؛ وقوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » آل عمران ٣١ - ، وأمثال هذه الآيات كثيرة . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذي كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه في عبد الله بن أم مكتوم وفي فداء الأسرى .

الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة في الشهادات الذاتية لمحمد<sup>(١)</sup> .

وفي الفصل الأول يصف أندريه نشأة « أسطورة محمد » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من أعمال القصاص ، وهم أولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الأساطير ، وتصادفنا آثار نشاطهم في كتاب ابن اسحق<sup>(٢)</sup> . فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج في شبكة من المعجزات . ويبسط أندريه القول بوجه خاص في قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وشق الصدر وانشقاق القمر ، والمصدر الرئيسي لهذه المعجزات هو أساطير وأقاويص دوائر

(١) لم يطلب محمد صل الله عليه وسلم انفسه مكانة معينة ، ولم يقبل ان يقدم له احد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافي ، فقد كان - على العكس من ذلك - يرفض مثل هذا اللون من التقديس . وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » - رواه البخاري - وقد روى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : أتى النبي صل الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائضه فقال له : هون عليك فأتى لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد .

والقآن يؤكد في العديد من آياته على بشرية الرسول . من ذلك قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنا إلهكم إله واحد » - الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦ ، وقوله « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » - الإسراء : ٩٣ .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الاقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « أنا رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة » - وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل إلى بني إسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد أرسل إلى « خراف بني إسرائيل الضالة » . أما محمد صل الله عليه وسلم فقد أرسل إلى الناس جميعا . وفي ذلك يقول - فيما يرويه البخاري ومسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة » . فليس هناك إذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الاسلام دينا للعالمين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » - المائدة : ٣ - ؛ والدين عند الله بصفة عامة هو الاسلام « إن الدين عند الله الإسلام » - آل عمران : ١٩ .

ولكن نسخ الاسلام للشرائع السابقة لم يجعل محمدا يقلل من شأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغترفوا ، وفي هذا الصدد يقول القرآن : « لا نفرق بين أحد من رسله » - البقرة : ٢٨٥ - ، وقد روى البخاري ان النبي صل الله عليه وسلم قال : « لا تخيروني على موسى » .

(٢) ابن اسحق : هو أبو عبد الله محمد ، توفر على جمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبي صل الله عليه وسلم ويظهر أنه قام بتدوين سيرة النبي في كتابين أولهما : كتاب المبتدأ أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » ويتضمن تاريخ النبي حتى الهجرة ، وثانيها هو كتاب « المغازي » وقد عرف ابن هشام كتاب المغازي عن طريق تلميذ مباشر لأبن اسحق هو زياد بن عبد الله الكوفي ، وقد جمع ابن هشام كتابي ابن اسحق وهذبها كثيرا في مواضع معينة واستخلص منها « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج الكتاب في صورته الحالية في القرن الرابع الهجري الوزير المغربي ، وشرحه السهيلي المتوفى عام ٥٠٨ هـ . اما ابن اسحق فقد توفي في بغداد حوالي عام ١٥٠ من هجره . راجع : دثيرة المعارف الاسلامية ( )

الحضارة الهلينية<sup>(١)</sup> . وبعد مضي بعض الوقت ( على أعمال القصاص ) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات أيضا بعرض تفصيلي من جانب أندريه .

أما الفصل الثاني فإنه يصف المحاولات التي قام بها العلم المختص بالعقيدة لمناقشة هذه المعجزات التي استقرت في عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبي محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرئة شخص محمد من كل الأخطاء وتحرير أفعاله من كل ما يمكن أن يكون مشارا للنقد<sup>(٢)</sup> . وفي الفصل الرابع الذي جاء بعنوان ( شخص محمد والسنة ) يظهر محمد أيضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة الأخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .

أما الفصل الخامس الذي يحمل عنوان ( شخص النبي والتقوى ) فإنه يصف المكانة التي يتمتع بها النبي بوصفه شفيعاً أو وسيطاً بين المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيراً يتناول الفصل الأخير موضوع ( نشأة تقديس النبي ) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسة عن طريق الصوفية بتأثير شيعي ، وقد تسرب أيضا مفهوم الوحي وكذلك تعاليم الوجود السابق والعقل ( اللوجوس ) إلى الإسلام السني بالتدرج بتأثير شيعي ، ويعد محمد المنقذ الوحيد للقدرة الألهية ، أجل ، إنه يعد

(١) تروى الكتب المسيحية الأوربية المؤلفة عن حياة القديسين المسيحيين ألوانا شتى من الأفاصيل والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التي حدثت على أيدي هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبي أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها إلى الحضارة اليونانية ! فأى منطلق هذا ! وكيف وأين اتصل هؤلاء القصاص الذين يروى عنهم ابن اسحق هذه المعجزات - بالحضارة اليونانية ؟

(٢) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة النبي عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فإن من لوازم النبوة بالضرورة وجوب الاعتقاد في أمانة النبي في تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من كل ما يشوه سيرته ، وهذه من الصفات التي يجب أن تتوافر في كل الأنبياء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك . ومن ناحية أخرى فإن الأنبياء يبرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من الأمور التي لا تخل بمقام الرسالة ، فهم يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا عاقبة له بتبليغ الاحكام ، وتمتد اليهم أيدي الظلمة والاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول في ذلك وفي غيره من أمور الاعتقاد .



في النهاية المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبي علاقة تقديس مفعم بالحب<sup>(١)</sup> .

وقد أغفل أندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للإسلام . ويشير جوزيف هوروفيتس<sup>(٢)</sup> إلى هذا المجال في مقاله التي تحدث فيها بإسهاب عن كتاب أندريه في مجلة « الإسلام » ( مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٣ ) .

(١) سبق أن أشرنا إلى ان اجلال المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن إطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التي يرى أندريه أنها تسربت إلى الاسلام بتأثير شيعي فنود هنا ان نؤكد أن الاسلام - بمصدره القرآن والسنة الصحيحة - لا يتحمل تبعة اية افهام تحرف بتعاليمه خارج إطار هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا في يوم من الأيام بأية تيارات دخيلة من أي نوع وفي أي شكل . وهذه ميزة فريدة يمتاز بها الاسلام عما عداه من أديان سماوية اختلط فيها الدخيل بالأصيل لدرجة الامتزاج التام . ولست ادري ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحي ضمن العناصر التي دخلت إلى الاسلام « السنن » بتأثير شيعي . فالمعروف أن مفهوم الوحي مفهوم قرآني خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها . أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبي علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله « أسوة حسنة » للجميع يترسمون خطاه ويسيروا على هديه ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ) الاحزاب ٢١ . وقد امتدحه الله في ٥٠ : « انذ اهل خلق عظيم » وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته في ذلك ( ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ) - الاحزاب : ٥٦ .

والمسلمون جميعا - وليس الصوفية فقط - تربطهم بنبينهم علاقة حب غامر يجمل عن الوصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذي ربط بين اتباع النبي ومحبة الله ( ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ) - آل عمران : ٣١ ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الاهتمامات الدنيوية التي يمكن أن تكون محورا للحب في كفة وحب الله ورسوله في كفة اخرى . وفي ذلك يقول الله تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأمواال اقتربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساکن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترهبوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين » - التوبة : ٢٤ . وهذا الحب الغامر يتمثل بصورة جلية في القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه إلى ساحة القتل ، وهناك سأله أبو سفيان - والرمح موجه إلى بطن زيد ليغرس في أحشائه - أنشدك بالله يا زيد ، أحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت سالم في أهلك ؟ فاجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي » ، وهناك قال ابو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا . ( القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد الغزالي بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤ م ) .

(٢) جوزيف هوروفيتس ( ١٨٧٤ - ١٩٣١ ) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للعبية في جامعة عليكره بالهند ، ثم في جامعة فرانكفورت بألمانيا . له دراسات عديدة في الاسلام والأدب العربي ، نشر أو اشترك في نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها إلى الإنجليزية أو الألمانية .

وأخيراً يقدم لنا شفاللى<sup>(١)</sup> لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد في المجلد الثاني من الطبعة التي قام بإعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » ( ص ١٩٨ - ٢٠٨ ) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبي » وطبقاً للتحويل الذي طرأ على الحكم على المأثورات العربية ؛ قارن ص ١٩٣ - ١٩٨ : نقد المأثورات ) يقسم شفاللى المؤلفات الغربية عن حياة محمد إلى ثلاث فترات ( على النحو التالي ) :-

١ - السيادة المتصلة للتقاليد الموروثة حتى منتصف القرن التاسع عشر ( شبرنجر ) .

٢ - عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ - عصر النقد المنهجي للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار إلى كل من هوتنجر وماراتشى وريلاندا ، وبعد ذلك يتناول بتفصيل أكثر كلا من جانييه وكوسان دي برسيغال وجوستاف فايل . أما الفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه ودوزي وكريل ورائكه وأوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوث . وأما الفترة الثالثة التي نعيش

---

(١) فريديريك شفاللى ( ١٨٦٣ - ١٩١٩ ) مستشرق الماني ، تتلمذ على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوي لليهفي في ثلاثة مجلدات ( جيسن ١٩٠٢ ) وعنه طبع في القاهرة ، اشترك في نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين - لبيتزيج ١٩٠٩ - ١٩١٩ . - ( المستشرقون ٢ / ٤١٠ ) .

في بداياتها فينتمى إليها بصفة خاصة الكتاب الضخم الذي قام بتأليفه ليوني  
كيتاني<sup>(١)</sup>. Leone Caetani

---

(١) الامير ليون كيتاني ( ١٨٥٩ - ١٩٢٦ ) مستشرق ايطالي ، كانت لديه ثروة طائلة أنفقها على العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس في النهاية . ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ الشرقي ، في عدة مجلدات ( ميلانو ١٩١١ وما بعدها ) وقد خصص منها مجلدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الإسلام في حوالى ستة مجلدات ( ميلانو ١٩٠٥ - وما بعدها ) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسريانية والعربية ، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التي لم تنشر بعد ، وتحديد ما ينبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد بالاشتراك مع جوزيبي جابرييل معجم الأعلام عن شخصيات العالم الإسلامي الذي كان ينتظر أن يقع في ٣٥ مجلدا ، ولكن الموت حال بينه وبين إتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثان منه . ( انظر أيضا المستشرقون ، ١/٤٢٩ وما بعدها ) .

## أسطورة محمد في العصر الوسيط

كواريسميوس : -

لقد كانت المحاولة الأولى لتناول أساطير العصر الوسيط عن محمد هي تلك التي قام بها كواريسميوس في صورة مختصرة ( قارن أيضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذي عاش فيه ) :

(De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفي القرن التاسع عشر بدأ المرء يوجه قدرا أكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التي تكونت في العصر الوسيط عن محمد .

رينو : -

وقد صاغ رينو في نشرته لرواية محمد<sup>(١)</sup> المهمة المطروحة في هذا الصدد أمام العلم في قوله : « إنه لمن الأمور ذات الفائدة أن تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب في صورة متابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوسع المرء أن يلحظ في ذلك الأثر البطيء والختمي لفعل العصور والأحداث والأماكن ، وبوسعنا أن نلاحظ التأثيرات المختلفة التي تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الأخلاقي والسياسي والجوانب الحضارية المتقدمة أو المتخلفة » .

---

(١) صدرت هذه الطبعة في باريس عام ١٨٣١ ، والرواية في الاصل منسوبة إلى الكسندر دو بون من القرن

الثالث عشر الميلادي .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفي البداية يقدم لنا لمحة عن التصورات التي اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانيه وجيون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التي جرت حول ديانة محمد في الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصار بعض الخصائص المميزة لبعض هذه المؤلفات .

### زيوليكي :-

ونظرا لأن طبعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفذت فقد قام زيوليكي Zirolecki بنشرها من جديد<sup>(١)</sup> وأضاف إليها مقالة بعنوان « بحوث حول أسطورة محمد في العصر الوسيط » .

### إدلستان دو ميريل :-

أما أساس « رواية محمد » لالكسندر دو بون A. du Pont فإنه يتمثل في « الأساطير الشعرية عن محمد » Otia de Mahomete « لفالتيريوس Waltherius أو جوتيه الكوميني<sup>(٢)</sup> . وقد نشرها أول مرة إدلستان دو ميريل في كتابه : الأشعار الشعبية اللاتينية في العصر الوسيط » .

وقد أجمل الناشر في مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد في الغرب والشرق . وقام بروتس بإخراج ونشر « أساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة أخرى وتناولها بإسهاب .

---

(١) صدرت هذه الطبعة في أوپلن Oppeln عام ١٨٨٧ .

(٢) نسبة إلى مدينة كومين Compiègne الفرنسية .

دى لينسى : -

ويقدم لنا ليرودى لنسى<sup>(١)</sup> Lincy بعض النماذج من أسطورة محمد في العصر الوسيط من أمثال ما ورد في تاريخ الأسقف تريين<sup>(٢)</sup> ، و- « المرأة التاريخية » من تأليف فينسنس فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض le Renard Contrefait والكتاب الذي ألفه اليهودى المنتصر الفونس المنتسب إلى اسبينا Spina بعنوان . Fortalitium Fidei

جاس : -

أما جاس<sup>(٣)</sup> فإنه يقدم لنا في البداية لمحة قصيرة عن الجدل المسيحي لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجدل الذي يرى أنه يشكل القسم الرئيسي الثاني لدفاع الكنيسة المسيحية الموجه نحو الخارج .

وفي قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمد وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من أمثال جانبيه وتريين وأيضا فايل قد اعتمدوا في الغالب على أبي الفداء<sup>(٤)</sup> وعلى مصادر شرقية أخرى .

---

(١) صدر كتاب دى لنسى في باريس عام ١٨٣٦ بعنوان : كتاب الأساطير .

(٢) صدر كتاب تريين بالفرنسية حوالى عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ محمد مشرع العربية .

(٣) الكتاب الذي يعرضه بفانمولر هنا من تأليف جاس هو كتاب : « الأرسطية والأفلاطونية في الكنيسة

اليونانية ، مع بحث حول معارضة الإسلام في العصر الوسيط ، وقد صدر في برسلاو عام ١٨٤٤ .

(٤) أبو الفداء : هو اسماعيل بن علي الأيوبي ، سليل أحد فروع الدولة الأيوبية في مصر . ولد عام ٦٧٢هـ

بدمشق ، تولى إمارة حماة ، وكان له نشاط علمي ملحوظ ، وقد اشتهر بوجه خاص بوصفه مؤرخا

وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتاب « مختصر تاريخ البشر » وكتابه في « تقويم البلدان » وقد تناول في الكتاب

الأول تاريخ ما قبل الإسلام ثم تاريخ الإسلام حتى عام ٧٢٩هـ . وقد طبع هذا الكتاب في مجلدين

بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه إلى اللاتينية والفرنسية والانجليزية . أما كتابه في « تقويم

البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ .

وبعد ذلك عرض في القسم الثالث إلى الخامس تعاليم محمد والإسلام في مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح وتمجسده المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعل الخير والحج والقدر . أما الفصل الختامي فإنه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء والقدر » .

بروتس : -

وقد كانت أكثر الأعمال استفادة من جانب بروتس Prutz في تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحي عن محمد وتعاليمه » وذلك في الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية »<sup>(١)</sup> ويبرز بروتس في بادئ الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الإسلام التي تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذي حدث عن قرب بين الإسلام والمسيحية سواء في أسبانيا أو في فلسطين أو في سوريا . فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم في حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول . فالصورة التي اتخذها المسيحيون في الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن ازدادت كدورة عن طريق أسوأ الخرافات ، وفي النهاية شوهت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخبث الافتراءات .

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الإسلام إلا عن طريق السلطات الكنسية التي كان يهيمها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد في صورة منحطة وفسادة بقدر الإمكان ، في حين أننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا إلا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة في سلام في وسط العالم المحمدي ، ويوجه خاص من جانب بعض المبشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسي وريكولدوس دي مونت كروتسيس .

(١) صدر هذا الكتاب في برلين عام ١٨٨٣ . ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتيه

الكومبيى » من منشورات أكاديمية العلوم في ميونيخ عام ١٩٠٣ .

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتس أولاً آراء الغرب في محمد وفي تعاليمه . فبعد المحاولة التي قام بها اليهودى الأسباني المنتصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن في بداية القرن الحادي عشر ، تناول هذا العمل بتعمق خاص بطرس الموقر رئيس رهبان كلوني<sup>(١)</sup> Cluny الذي كان صديقا للقديس برنهارد المنتسب إلى كليرفو Clairvaux . وقد عمل بطرس الموقر في البداية على إنجاز ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية<sup>(٢)</sup> . وبالإضافة إلى ذلك أمر بترجمة كتابين آخرين أحدهما عن سيرة النبي والثاني عرض للنقاط الأساسية في تعاليم العقيدة المحمدية في شكل حوار .

وأخيرا قام بتأليف أربعة كتب « ضد الزندقة البغيضة لطائفة المسلمين » . وهذه الأعمال التي قام بها هذا الرجل الكلوني المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبي ضد الإسلام فحسب ، بل أصبحت المصدر الرئيسي أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد وتعاليمه . وإلى مؤلفات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التي نشأت في العصر الوسيط ضد الإسلام ، سواء كانت نثرا أو في شكل شعري أو في صيغة أخبار وتقارير حول المناقشات التي جرت - زعما كان ذلك أو حقيقة - بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفي هذه المناقشات يظهر محمد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وإنما أيضا محتالا وضيعاً ومن عشاق اللذة<sup>(٣)</sup> .

ومن بين التصورات التي كانت منتشرة بصفة خاصة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلبون محمداً للمجرد كونه نبياً ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل

(١) بطرس الموقر ( ١٠٩٤ - ١١٥٦ ) راهب فرنسي ينتمي إلى جماعة الرهبانية البندكتية التي شيدت دير كلوني عام ٩١٠ في فرنسا . قصد الأندلس فيمن قصدتها مستزيدا من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلوني في القرن الثاني عشر مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية .

(٢) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٣م على يد العالم الانجليزي روبرت أوف كيتون بإيعاز من بطرس الموقر .

(٣) إذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود في أصله إلى أباطيل الأب بطرس « الموقر » فلست أفهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، إذ أن ما قام به - من وجهة نظر موضوعية - هو افتئات على الحقيقة وجريمة في حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح . فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟



الألوهية . وبالإضافة إلى ذلك وُصِفَ دين محمد - على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية - بأنه دين الشرك وتعدد الألوهية . وقد اتهم المحمديون أيضا - دون سند تاريخي - بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يميزاً من أمية النبي ويسخر من الراعى السابق للإبل والحمير<sup>(١)</sup> .

ولابد أن يعود هذا الجهل التام وسوء التقدير للإسلام - رغم الاختلاط الكثير المباشر - إلى حد ما إلى أن التعرف الأول على الإسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها إلا قليلا ، أعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع أقدم التقارير التاريخية التي لدينا عن نشأة الإسلام إلى تيوفانس البيزنطى . وقد عرضه أمين المكتبة الرومانى أناستاسيوس فى كتابه عن تاريخ الكنيسة . وإلى هذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التي قيلت عن محمد فى العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا أشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا جيبيير النوجنتى Guibert de Nogent Sous-Coucy صورة شاملة . وكثيرا ما عرضت أسطورة محمد أيضا فى صورة شعرية ، وهكذا قام هيلديبرت المنتسب إلى ليمو Lemans والذي كان فيما بعد رئيسا لأساقفة تور Tours ( توفى عام ١١٣٣ م ) قام بكتابة تاريخ محمد فى صورة شعرية معينة Distichen تتضمن ذكريات كلاسيكية وقد ظهرت فيما بعد قصيدة مشابهة وهى « أساطير محمد لدى

---

(١) لسننا فى حاجة إلى التعليق على هذه التصورات الباطلة ، فهى - كما يقول بفانمولر - تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد أى سند تاريخي . وقد كان البيزنطيون - كما يقول بفانمولر بعد قليل - هم أول من أذاع فى الغرب معظم الأساطير التي شاعت حول محمد والإسلام .

ويبقى أن نشير إلى أن أمية محمد عليه الصلاة والسلام والتي أشار إليها القرآن فى آيات عديدة كانت من دهائم الإحجاز ، فهى مناط فخر وبرهان صدق على دعوته لامثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للإبل أو الغنم فلم يكن فى ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعي الغنم وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » - رواه البخارى - ويقول أيضا : « كنت أرى رعيه غنم أهلى » - رواه الترمذى - وليس فى ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الأنبياء جميعا .

فالتيرى Otia Walteri de Mahomete وعلى هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما رواية محمد Roman de Mahomet التي كتبها الكسندر دوبون du Pont . وفي العرض الذي قدمه لنا أندريا داندولو الفينيسي تتجمع عناصر الأساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التي يجب ان توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحيين . ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من أساطير وخرافات ومخترعات افتراضية للعصر المسيحي الوسيط في كتاب فينسينز Vincenz ( المنتسب إلى بوفيه ) Beauvais والمسمى « المرأة التاريخية Speculum historiale » وهناك حكم أكثر موضوعية إلى حد بعيد عن محمد والإسلام نجده لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسي الذي يبدو أنه قد اغترف كثيرا من المصادر الشرقية ، وفي وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة حول نشأة القرآن .

أما جيرهارد الاشتراسبورجي<sup>(١)</sup> الذي ذهب إلى صلاح الدين في عام ١١٧٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول - فإن التقرير الذي وضعه حول أخلاق وعادات المحمديين يبرهن ليس فقط على ملاحظات جيدة ، بل يبرهن أيضا على حكم متسامح وموضوعي .

وهناك حكم أكثر تسامحا وموضوعية نجده في العرض المسهب لعقيدة المحمديين وحياتهم وأخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ ريكولدوس دي مونت كروسيز Recoldus de Monte Crucius الذي كان له نشاط في نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، والذي عاش سنوات طويلة مبشرا بين المحمديين ولكن مثل هذه الأحكام والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا في العصر الوسيط .

وعلى العموم فإن في وسع المرء أن يدعى « أن الكفاح المرير الذي قاده العصر المسيحي الوسيط بالسلاح وبالجدل اللاهوتي ضد تعاليم محمد وضد اتباعه ، قد تم دون أية معرفة كافية بالخصم ودون أية فكرة عن ماهيته وطبيعته : فالإسلام الذي انطلق العصر المسيحي للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى في يوم من الأيام » .

(١) نسبة إلى مدينة اشتراسبورج الفرنسية .

تلك كانت الخطوط الرئيسة للعرض المسهب الذي قدمه بروتس ، هذا العرض الذي كان ينبض بالحياة عن طريق الاقتباسات الوفرة من المؤلفين المعنيين والذي اكتمل بالاسانيد المصدرية المفصلة وبالادلة .

### دانكونا :

تمثل بحوث دانكونا D'Ancona المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد قاده دراساته المقارنة في الآداب الرومانية إلى طرح سؤال حول نوع المعرفة التي كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد<sup>(١)</sup> .

وعلى أساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمد في العصر الوسيط ، تلك الصورة التي عرض شوفان بعض خطوطها ببراعة فائقة في مؤلفه البيليوجرافي ( قارن أيضا النقد المفصل لرينان في مجلة العلماء Journal des Savants ١٨٨٩ م ص ٤٢١ - ٤٢٨ )

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد ( الراهب بحيرى )<sup>(٢)</sup> والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين دانكونا الوحدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطي تيوفانس وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على

---

(١) يرجع في ذلك إلى البحث الذي نشره دانكونا في العدد رقم ١٣ من المجلة التاريخية للآداب الإيطالية بعنوان « أسطورة محمد في الغرب » من ص ١٩٩ إلى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٢) بحيرى : راهب نصراني ، كانت له صومعة في بصرى من أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثانية عشرة من عمره مع عمه ابن طالب ، فعرفه ببعض ملامحه وقال « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .

ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصلاة والسلام لبحيرى رغم أنه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت في بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن ترى في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال » .

( راجع : مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٤ - هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظر كتابنا : الاستشراق ص ٨٥ ) .

أنه زنديق ، وأنه أريوس جديد أسوأ من أريوس الأول<sup>(١)</sup> . وأسطورته تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من أمثال سيمون ماجوس أو نيكولاوس \*\* .  
وتضيف المؤلفات الشعبية إلى ذلك افتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك أقوالا إيجابية أيضا . ونظرا لأنه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذي يستحقه - نظير خدماته التي أداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الإيمان بإله واحد - فقد تحول إلى منشق على الكنيسة<sup>(٢)</sup>

(١) آريوس ( ٢٧٠ - ٣٣٦ م ) ولد في الاسكندرية وكان قسيسا بها ، وقد عارض أسقف الاسكندرية الذي كان يذهب إلى القول بأن المسيح ابن الله وأنه مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس إلى القول بأن المسيح غير مساو للآب في الجوهر والعظمة وأنه مخلوق بإرادة الآب حادث غير أزلي . الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الاسكندرية خرج قاصدا فلسطين وسوريا فتحزب له أساقفة كثيرون في تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لمناقشة تعاليمه منها مجمع الاسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقيه عام ٣٢٥ بأمر الامبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة في النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح إلها وقالوا بالتثليث فإن تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت في حياته ، واحتقن الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بمقعد مجمع في مديولان ( ميلان ) حضره أكثر من ثلاثمائة أسقف ، وتبين أن أكثرية الآراء فيه كانت للأريوسيين . وقد بقيت التعاليم الأريوسية ممتدة في أسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وقع الانشقاق بين الأريوسيين وانقسموا إلى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفي أيام ثيودوسيوس الثاني صدر الأمر باستئصال الأريوسيين وإبادتهم ، وكان ذلك في عام ٤٢٨ م . ويقال إن سرفتس أحيا تعاليم الأريوسية في القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وسيبت إزجاجا للكنيسة التي سارعت بالقضاء على معتقياها . ( راجع دائرة معارف البستان ) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأي الذي كان يقول به آريوس هو الرأي الذي يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التي ترفض التثليث وترفض ألوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاعتراف الموجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصطنعة .

ولبعض العلماء نظرة ثابتة في تفسير لفظ « الأريوسيين » الذي ورد في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر الروم ، والتي جاء فيها : « أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريوسيين » ويذهب هذا البعض من العلماء إلى أن المقصود بالأريوسيين هنا هم أتباع آريوس القائلين بالعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكي أقرب إلى العقل والمنطق من كل ما عدها من تفسيرات أخرى .

(٢) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

ويبين دانكونا بعد ذلك كيف أن جزءا من أسطورة محمد - ذلك الذي يتصل بأصل محمد وعلاقاته بالمسيحية واليهودية - يتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية (١) . ولكن بمرور الزمن تبتعد الأسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد مشابها لنيكولاوس وبلاجيوس \* ، أجل ، فالبعض كان يرى أن الإسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ! وأخيرا تبقى الأسطورة عند موت محمد مع إحساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنازير قد التهمتته وهو في حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين (٢) .

### كاسترى :

يتناول كاسترى (٣) في كتابه عن الإسلام في ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الإسلامية » . ويزعم خطأ أن هذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . وإذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمال المشار إليها لكل من ليرودى لنسى ، ودوميريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

---

(١) هنا إشارة خفية إلى أن هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة في معظم الدراسات الاستشراقية حول الإسلام . ( انظر في ذلك كتابنا : الإسلام في الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها ) .

(٢) الأسطورة لا عقل لها ، وهى في الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الأمر الغريب هنا هو أن الغرب كان يصور لنفسه هذه الأساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما تحمله هذه الأساطير من أمنيات كاذبة ترضى في نفسه نزعات معادية للإسلام ونبيه .

(٣) هـ . دى كاسترى ( ١٨٥٠ - ١٩٢٧ ) ، ورد في ترجمته لدى نجيب العقيقى أنه كان مقدما في الجيش ومهتما بالدراسات المغربية ، وأنه قد اشترك في إصدار مجموعة بعنوان « مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب » . ولم يذكر له العقيقى كتابا عن الإسلام . ولكن بفائوللر يعتمد في حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الإسلام بعنوان L' Islam وقد صدر في باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال إيجابية عن الإسلام وقد اهتم بأن رأيه في محمد إيجابى أكثر مما ينهى ( انظر في ذلك البحث الذى نشرناه في العدد الثانى من حولى كلية الشريعة بجامعة قطر ص ١٤٥ / ١٤٦ ) .

ولا يقدم لنا عمل كاسترى شيئا جديدا إلا القليل ، وحكمه على المعرفة التي كانت لدى لاهوتي العصر الوسيط عن الإسلام ليس دائما حكما صائبا ( قارن النقد التفصيل لرينيه باسيه في مجلة تاريخ الأديان ٣٥ ، ، ١٨٩٧ ص ١٢١ - ١٢٣ .

### شرودر :

أمار . شرودر فإنه قد جمع الخطوط الرئيسة لأسطورة محمد في العصر الوسيط . كما تتمثل في الشعر الفرنسي القديم<sup>(١)</sup> .

وحسبها ورد في هذا الشعر فإن محمدا وحده هو صاحب نظرية التعدد في الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التي يقول بها المسلمون ، وفي الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد أبدا بوصفه نبيا ، وإنما يظهر باستمرار بوصفه إلهما ، وعلى وجه التحديد بوصفه أعظم وأقوى الألهة الوثنية . وقبل أن يتحول محمد إلى هذا الاعتقاد كان مسيحياً مؤمناً ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمد لدى الوثنيين خالق هذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال في شكل عبادة التماثيل ، هذا الشكل الذي اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع إله المسيحيين فإن محمدا محاط أيضا في السماء بالقدسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل أسوارها قبر إلههم . أما العيد الكبير السنوي الذي يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

وأشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل في رأى الجانبين في الزواج . والمحمديون يكرهون إله المسيحيين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لأتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشككون بشق الطرق الممكنة في طهارة محمد من الذنوب أثناء حياته الأرضية . وتروي بشغف خاص قصة موته الذي يرثى له - فالخنازير قد وجدته مغمورا فوق كومة من القمامة

(١) يرجع في ذلك إلى كتاب شرودر الذي صدر بالألمانية في ارنانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والحرافقة في الأشعار الفرنسية القديمة » .

فالتهمته<sup>(١)</sup> .

دريسباخ :

اهتم دريسباخ في رسالته للدكتوراه برسم صورة للشرق وساكنيه كما صورها أدب الحملات الصليبية الفرنسي القديم<sup>(٢)</sup> . فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة Chansons de geste التي كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فإنه بوسعنا أن نعرض صورة حقيقية عن الشرق من أدب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هذا الأدب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح أننا لا نزال نجد في هذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الإسلام ، ولكنها مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جدا مع الحقيقة التاريخية . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه إلهيا وإنما بوصفه نبيا ومؤسسا للإسلام ، وقد أصبحت أهم وصاياه الرئيسة وأهم النقاط في تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السنة والشيعة . وهناك اهتمام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شيخ الجبل »<sup>(٣)</sup>

(١) الأسطورة - كما سبق أن أشرنا - لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله عليه وسلم وحول دينه في عصر كان يعتمد في فهمه للإسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التي روجت لها السلطات الكنسية . واعتقد أن القارئ لا ينتظر منا أن نقف طويلا عند مناقشة ما جاء في هذه الأساطير من تفاصيل ، إذ يكفي أنها أساطير لا أصل لها .

(٢) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية في برسلاو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسي القديم للحملات الصليبية » .

(٣) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الإسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية في الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من أعدائهم بالاختيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلي « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣هـ . ويقال إنه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون يتمتعون فيها باللاذ التي يتوقعون التمتع بها في الفردوس . ولكن الذي لا ريب فيه أن جتتهم تلك كانت محض خيال يصوره لهم الحشيش الذي كانوا يدخنونه .

وفي عام ٥٣٥هـ فتبعوا عددا آخر من الحصون في شمال بلاد الشام وغيرها . وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدهم « شيخ الجبل » وقد قضي المنول عليهم ، واحتل جنود هولوكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤هـ ولكن الغلبة القاضية التي قضت تماما على السلطان السياسي لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المماليك بيبرس عام ٦٧١هـ . ( راجع دائرة المعارف الإسلامية ) .

دوتيه :

يتناول دوتيه الخرافة التي انتشرت انتشارا واسعا في العصر الوسيط والتي تقول بأن محمدا كان في الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل في الحصول عليه أسس الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية<sup>(١)</sup> .

باسيه :

أما باسيه<sup>(٢)</sup> فقد تناول بالبحث العميق أسطورة أخرى عن محمد كانت هي الأخرى منتشرة أيضا انتشارا واسعا في العصر الوسيط ، وتقول هذه الأسطورة إن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم كل تماثيل الآلهة التي كانت قائمة في أسبانيا ماعدا تمثالا واحدا فقط كان موجودا في قادس<sup>(٣)</sup> Cadix ويروى المسلمون أن محمدا نفسه قد قام بعمل هذا التمثال أثناء حياته باسمه هو وأنه بفضل ما لديه من فن سحري قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هذه الكتيبة بما لها من تأثير على منع تحطيم هذا التمثال من جانب أي أحد يريد تحطيمه .

---

(١) لقد تناول ادmond دوتيه هذه الموضوعات في كتابه بالفرنسية « محمد الكرديتال » الصادر في باريس عام ١٨٩٩ .

(٢) رينيه باسيه ( ١٨٥٥ - ١٩٢٤ ) مستشرق فرنسي ، نشر العديد من الأبحاث والدراسات الإسلامية والعربية والبربرية والحبشية في مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، وأسهم في دائرة المعارف الاسلامية ، وكان عضوا في العديد من الجامعات العلمية . والبحث الذي يشير اليه بفائولر هنا هو البحث الذي نشره باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ في مجلة العلماء من ص ٣٩١ حتى ص ٤٠٢ .

(٣) قادس مدينة اسبانية وهي عاصمة إقليم قادس ، ويسكنها حوالي ١٣٦٠٠٠ نسمة ، وهي مدينة قديمة يرجع تاريخ إنشائها إلى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

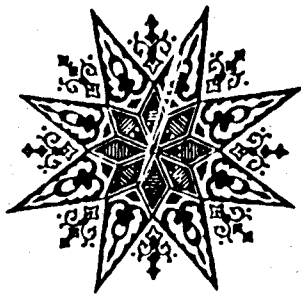


وقد أثبت باسيه بالتفصيل انتشار هذه الأسطورة في المصادر المسيحية والعربية والاسكندنافية ، وبرهن على ان الأمر هنا يدور - على الأرجح - في الأصل حول تمثال هرقل ظن المحمديون خطأ أنه يرمز إلى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين إلى المسيحيين في أسبانيا . ومن هناك تسربت إلى الأدب الفرنسي في العصر الوسيط<sup>(١)</sup> .

(١) إذا رويت هذه الاساطير على السنة الغربيين ودونت في مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال إن المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي :-

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرم التماثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها محاكاة لخلق الله من ناحية أخرى . وقد ورد في هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما وراه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » . وقوله : « يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهاون بخلق الله » وفي رواية أخرى « . . . الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد - أن ينسب المسلمون إلى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أوهم بصنعه ؟ وقد يقال إن بعض العلماء في العصر الحديث قد قال بتأويل مثل هذه الأحاديث . ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين في الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتخرجون حتى اليوم - بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على ظهور الإسلام - من مجرد ظهور شخصيات تمثل أدوار أحد من الصحابة في مشاهد هادفة ، ناهيك عن إقامة تماثيل لهم . فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم . وإذا كان هذا شأن المسلمين اليوم حيث تنتشر التماثيل في كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا مألوفا فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفي بلاد أحرقت كتاب الإحياء للفرزالي ظنا منها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الإسلام . إن الأمر الأقرب الى المعقول هو أن هناك أسطورة كانت قائمة قبل أن يدخل المسلمون إلى هذه البلاد ، ثم حورها الأوروبيون أنفسهم - وإيمانهم بالأساطير كان شديدا في العصر الوسيط - وروجوها على السنة المسلمين .



# سيرة الرسول في تصورات الغربيين

فصول مختارة من كتابات المستشرق الألماني

جوستاف بفانمولر

ترجمها وقدم لها وعلق عليها

الأستاذ الدكتور

محمود حمدي زقزوق

عميد كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثاني - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

### أولاً : تمهيد

لقد نشرت الحلقة الأولى من هذا البحث في العدد السابق من هذه المجلة (١) . وكنا قد ذكرنا حينذاك أنه نظراً لطول الموضوع وتشعبه سنضطر إلى تقسيمه إلى حلقات آمليين أن نستكمله في أعداد قادمة إن شاء الله .

وها نحن نتابع في هذا العدد ما وعدنا به القاريء الكريم حيث يجد هنا الحلقة الثانية (٢) من هذا البحث الهام . ونسأل الله أن يوفقنا إلى الاستمرار في إعداد بقية الحلقات .

ولسنا هنا في حاجة إلى إعادة ما سبق أن ذكرناه في تقديم الحلقة الأولى عن أهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من أوصاف تسيء إلى نبينا ﷺ . ولهذا نرجو من القاريء الكريم أن يرجع في ذلك إلى ما ذكرناه في هذا الصدد في موضعه .

ولكننا نود هنا أن نضيف إلى ذلك حقيقة هامة تتمثل في أننا إذا أردنا أن نعرف سر موقف الأوربيين اليوم من الإسلام ونبيه فإن علينا أن نبحث عن ذلك ، ليس في الظواهر السطحية التي نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الإسلام ونبيه ﷺ ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الإسلام ونبيه ﷺ ، والتي لا تزال في أعماق الأوربيين تظهر في المناسبات بوعي أو بغير وعي . ومن هنا تأتي أهمية التعرف على هذه المواقف السابقة .

ولعلي أنتهز هذه المناسبة لأوجه نداء إلى المؤسسات العلمية الإسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربي المتعلق بالإسلام ، وربما كان من الأوفق أن تتجه بعض هذه المؤسسات إلى إنشاء مركز علمي خاص لدراسة التراث الغربي المشتغل بالإسلام . وهو تراث غزير في كفه .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن ما ألفه المستشرقون عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) قد بلغ ستين ألف كتاب (٣) .

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الإسلام لم تتغير كثيراً في عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الإيجابية في بعض الأحيان . ففي الوقت الذي نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتاباً تدعو فيه إلى الحوار بين المسيحية والإسلام على أسس متحررة من الأوهام والأحكام السابقة ضد الإسلام والتي هي من موروثات العصور الوسطى (٤) - نجد مؤلفات تصدر في الغرب بين الحين والآخر في أيامنا هذه تحذر من خطر الإسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية (٥) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين - مستشرقين وغير مستشرقين - لا يزالون حتى اليوم أسرى التصورات القديمة التي خلفتها العصور الوسطى عن الإسلام ونيبه ، ناهيك عما تفعله وسائل الإعلام في الغرب بالإسلام ومقدساته .

وفي هذا الجزء من البحث يلاحظ القاريء الكريم أن بفانموللر يعود للحديث مرة أخرى عن بعض المؤلفات التي سبق أن تناولها في الحلقة الأولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، إذ أنه هنا يفصل ما سبق أن أجمله وذكره هناك في عبارات قصيرة ، ويلقي أضواء على جوانب لم يشر إليها من قبل . ومن هنا يمكن أن تعد الحلقة السابقة - إلى حد ما - بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة في أغلب الأحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل أن نعرض الترجمة الكاملة للفصول التي اخترناها من كتاب بفانموللرنود أن نقدم لها بنظرة إجمالية تشير فقط إلى أهم النقاط في خطوط عريضة :

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتباراً من القرن السابع

عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة في هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادي بطبيعة الحال للإسلام . ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن أيضاً هدفاً علمياً ، بل كان محاربة الإسلام والدفاع عن المسيحية . ومن أجل هذا الغرض وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل في معرفته . ومن هنا كان لابد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات في ذلك الوقت على أكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتائم وقاحة ، وذلك جنباً إلى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل «بولانفليه» كان أول من تجرأ - في وسط هذا الجو القاتم - على وصف محمد ﷺ بأوصاف إيجابية ، إذ قال عنه إنه أداة الله التي قضى بها على العبادة الباطلة وأحل محلها العبادة الحقّة .

أما عصر التنوير في أوروبا فقد مجّد محمداً ﷺ بصفة عامة . ففي عصر التنوير الفرنسي احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة في اهتمامات المثقفين وكان موضوع أحاديث الصالونات في ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض . أما التنوير الألماني فقد كان يرى في محمد ﷺ داعية إلى الدين الطبيعي .

وقد قال كارلايل بحق : «إن الأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحداً غيرنا» .

وفي القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التي توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية في السيرة . وكان جوستاف فايل أول من قام بمحاولة في هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثاً نقدياً ، وقام بجمع كل

المؤلفات الأوربية حول السيرة . ولكن النزعات أو الميول الأساسية الأوربية إزاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجانب اشبرنجر مثلاً - الذي كان ينتهز كل مناسبة لتصوير أخلاق محمد ﷺ تصويراً سيئاً ما وجد إلى ذلك سبيلاً - كان هناك مستشرقون آخرون معتدلون نسبياً مثل نولدكه الذي كان يسعى إلى «موضوعية هادئة» . ويقول نولدكه :

« إن محمداً كان على اقتناع بمهمته لإنقاذ إخوانه في الإنسانية من العذاب الأبدي بهدايتهم إلى العقيدة الصحيحة ولكي يجعلهم مشاركين في السعادة السماوية» .

أما كريل فإنه يقول : «يجب أن يعترف المرء رغم كل أخطائه أن محمداً كان مؤسس المدينة العربية وأنه قد وضع شعبه على درجة عليا من الدين» .

أما موقف بفانمولر نفسه -صاحب البحث الذي نقوم هنا بترجمته- إزاء جهود زملائه التي تضرب في معظمها في متاهات واسعة فيبدو أنه يميل إلى أن يترك أمر هذه القضايا مفتوحاً عندما يقول : إن أصول نشأة الإسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاقة لا نهاية لها أكثر غموضاً من أي وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة في هذا البحث أن كثيراً من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصوراً خاصاً عن محمد ﷺ يتمثل في زعمهم بأنه ليس بنبي حقيقي ثم راحوا يحاولون إثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما أفرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه في الإسلام ليبينوا أن الإسلام ليس ديناً سماوياً .

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه هنا هو أن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيه لا يمثلون دائماً خطأ واحداً في جميع المسائل ، فهناك أمور يختلفون

عليها ويبلغ النقاش فيها حداً بعيداً سواء من جانب المؤيدين أو من جانب المعارضين . ومن أمثلة ذلك ما ادعاه «جريمة» من أن محمداً ﷺ لم يكن إلا مصلحاً اشتراكياً ما كان من تفنيد «سنوك هورجرونيه» لآراء «جريمة» في هذا الصدد .

وفي ختام هذا التمهيد نود أن نشير أيضاً إلى أن الكتاب الذي نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على أية هوامش . ومن أجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرّف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونورد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الإسلام ونبية ﷺ ، ونوضح فيها أيضاً بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضرورياً .  
ومن ناحية أخرى فإن المؤلف قد قسم الموضوع هنا إلى تقسيمات عامة على النحو التالي :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

- (أ) من بوديه إلى سيل .
- (ب) التنوير الفرنسي .
- (ج) من التنوير الألماني حتى ظهور أول كتاب تاريخي نقدي عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل .
- (د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد في القرنين التاسع عشر والعشرين .
- (هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد .

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول إلى فقرات ووضعنا لها عناوين جانبية تحمل في الغالب اسم المؤلف الذي تناوله كل فقرة على حدة . ولعلنا نكون في ذلك كله قد وفقنا إلى الصواب .

(د. محمود حمدي زقزوق)



## ثانياً : ترجمة وتعليقات

### التراجم الحديثة لسيرة محمد

( أ ) من بوديه إلى سيل :

١ - ميشيل بوديه Michael Baudier :

يرجع الفضل إلى ميشيل بوديه (٦) في أنه أول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلاً من الكتابات الجدلية الكنسية . وقد كان بوديه بالنسبة لعصره - على أي حال - مؤرخاً معتبراً ، كما كان كاتباً شعبياً . ويدين له الجمهور الفرنسي بالفضل لكتابه الذي استطاع أن يعرف فيه بالإسلام . وببهاهي بوديه بحق بأنه أول من جمع هذه المادة (المتعلقة بحياة محمد) في صورة تاريخ كامل . ولذلك كان لكتابه أيضاً تأثير يفوق الوصف على التصورات (الغربية) عن الإسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل - على وجه اليقين - عملاً محايداً . فقد كانت غاية بوديه هي «الكشف عن أباطيل نبي الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكشف عن تعاليمه المضحكة والوحشية» (٧) .

وقد كان بوديه كاثوليكياً متديناً ، يستقي معلوماته من مصادر كنسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القرن السابع عشر في محمد إلا دجالاً أو مضللاً ، ولم تكن لدى هذا القرن إلا الرغبة في دفن محمد تحت أكوام من النقض والتفنيد .

ولكن هذا الحماس الديني كان له أيضاً جانب طيب . فلكي يستطيع المرء

أن ينقض محمداً بطريقة أفضل كان لا بد للمرء أن يعرفه ؛ وقد كان من اللازم أن يطلع المرء على القرآن وأن يفهمه . وقد روى بوديه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ؛ والحق أنه قد جعل هناك مكاناً في كتابه لأكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة . أجل ، لقد أغرم بوديه بوصف أعمال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبي وصفاً يصل إلى حد التفاصيل الجزئية (٨) .

ولكن بوديه ، في العصر نفسه الذي تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصوى من الدقة والثراء . أجل ، إن الأمر الأهم من ذلك هو أنه قام بوصف تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وأبرز كيف تتم مراعاة الزكاة والإحسان في بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فإنه قد جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماماً على قطب الرحي الذي يدور عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء أن يطلق على نصف الكتاب أنه ترجمة فرنسية للقرآن . وبعد أن تحدث بوديه عن محمد وعن أعماله وعمما يسميه بالتدرج الديني في الرتب Hierarchie لدى المسلمين ، يسعى بوديه إلى توسيع نطاق عمله التفيدي كله في خطوط ثابتة لكي يواجه سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام «إلحاديات» محمد يصف بإسهاب المواضع القرآنية التي أفسد فيها النبي الزائف الديانة المسيحية . ولكن لكي يجعل بوديه الخديعة أو التضليل واضحاً بقدر الإمكان أمام الجمهور فإنه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس . وعلى هذا النحو يتعرف القارئ على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر كل صفحات الكتاب .

٢ - إدوارد بوكوك E. Pococke :

وفي حين كان بوديه ينقل بأمانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ، فقد قام المستشرق الشهير إدوارد بوكوك (٩) (١٦٠٤-١٦٩١) - الذي استطاع أن يجوز على معرفة واسعة باللغة العربية أثناء إقامته الطويلة في الشرق - قام بنشر مصدر عربي عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب في تاريخ حديث ، ومن أجل ذلك فإن قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية (ص ١٣٢) (١٠) .

ولكن أهمية هذا الكتاب تتمثل في أن المرء قد أصبح أخيراً على وعي بأنه يتحتم الرجوع إلى مصادر عربية أساسية لكي يمكن الوصول إلى نظرة أكثر موضوعية إلى محمد وتعاليمه . وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهبة واستطرادات تشهد بعلمه الغزير . وقد تم في العصر التالي استغلال الكتاب إلى أقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربي .

٣ - هوتنجر Hottinger :

في كتابه تاريخ الشرق «Historia Orientalis» حاول يوهان هينريش هوتنجر (١١) (١٦٢٠ - ١٦٦٧) الذي تخرج بوصفه مستشرقاً في كل من جروننجن وليدن ثم أصبح أستاذاً لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية في زيورخ - حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الإمكان . وقد قدم فيه تاريخاً مفصلاً نسبياً للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص أيضاً تاريخ محمد وما يتصل به . وذلك كله في شكل أكثر غزارة وثراء مما كان قائماً حتى ذلك الحين . وقد كان كتاب هوتنجر - الذي اعتمد فيه كثيراً على كتاب بوكوك المشار إليه «Specimen» - يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعداً ولفترة طويلة

الينبوع لتاريخ العرب . ولكن هوتنجر يرى في مقدمة كتابه أن من الضروري أنه يجب عليه أن يعتذر لقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه . ولكي يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال بوللينجر Bullinger وميكونيوس Myconius وببلياندر Bibliander ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال لا مبرور L'Empereur الأستاذ بجامعة ليدن .

وبالإضافة إلى تشجيع (تقدم) التفسير والدفاع (١٢) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول إلى غايتين :  
فقد حدث أن اتهم الروم الكاثوليك دعاة الإصلاح (الديني) بالسير في خفاء وراء المذهب المحمدي . وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت في فصل خاص -على سبيل المثال- أن حجج بيلارمين (١٣) Bellarmin في الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الإسلامي .  
وبجانب ذلك يريد هوتنجر - كما سبق أن فعل ببلياندر في عصر لوثر - أن يسهم في محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية . ويعتقد هوتنجر أن تفنيد الديانة التركية يعد أيضاً بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية .  
وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعي نحو إنصاف الإسلام وإنصاف مؤسسه بقدر الإمكان .

٤ - ألكسندر روس A. Ross :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر «تاريخ الشرق» بعامين ظهر في إنجلترا في عام ١٦٥٣ أول كتاب في تاريخ الأديان العام من تأليف ألكسندر روس تحت عنوان التقديس الشامل أو «Pansebeia» ، وقد ترجم أيضاً إلى الألمانية بعد ذلك بخمسة عشر عاماً (١٤) .

ولم يبد روس في هذا الكتاب الجامع إلا قليلاً من التعاطف مع أشكال  
المعتقدات الأجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعاطف بالنسبة للإسلام بوجه  
خاص إلا أقل القليل . صحيح أنه يبرهن في فصل خاص على أن محمداً لم يكن  
العدو الكبير للمسيح الذي تحدث عنه كل من بولس في الإصحاح الثاني من  
رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي وكذلك يوحنا في سفر الرؤيا . ولكن روس رغم  
ذلك لا يريد أن ينكر « أن محمداً كان عدواً للمسيح لإتيانه بتعاليم قام بترويجها  
تعارض ألوهية المسيح » .

٥ - ماراتشي Marracci :

وقد قدم ماراتشي في كتابه « الرائد في تفنيد القرآن » نظرة على حياة وأعمال  
محمد مؤلف القرآن .

وقد حاول جاهداً - كما فعل بوكوك وهوتنجر - أن يرجع إلى مصادر عربية .  
ويعبر ماراتشي هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على النحو التالي : « إذا أردت  
أن تصور حياة محمد حسبما كتب في ذلك مؤلفونا وكتابنا فسأجعل نفسي مدعاة  
للسخرية لدى المحمديين . فالفرق كبير جداً بين ما يروونه وما نرويه نحن  
لدرجة أن المرء لا يمكنه أن يصدق أن كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلاً  
واحداً . ومن أجل ذلك فإنني أريد أن أتابع أولئك ، ليس لأني آخذ كل شيء  
على أنه حق ، بل لأننا إذا تناولنا عدو الدين بالنقض والتفنيد فإن محاربتة  
بأسلحته هو أفضل من محاربتة بأسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن كثيراً من كتابنا يروون عن محمد أشياء تثير الضحك  
لدى المحمديين ، ولا تجدي إلا في زيادة تقويتهم في خرافاتهم . وعلى ذلك فإنني  
سأعتمد في الحديث عن حياة محمد على أكثر المؤلفين العرب قدراً . وإذا كنت

على علم أيضاً بأن هؤلاء يأتون بالكثير من الأكاذيب لإعلاء شأن نبيهم الزائف  
فإنني لن أجعلهم يعتبروني كاذباً .

وعلى الرغم من أن ماراتشي - بناء على إحاطته بالمصادر العربية - قد  
استطاع أن يثبت أخطاء كثيرة لأسلافه في محاربة محمد فإن محمداً قد ظل لديه هو  
النبي الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمئزاز ومؤلف كتاب  
مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والأباطيل (١٥) .

٦ - بريدو H. Prideaux :

وإذا كان ماراتشي قد كتب ما كتب بوصفه مجادلاً كاثوليكياً واضحاً ، له  
غرض أساسي يتمثل في الدفاع عن المسيحية في مقابل الديانة المحمدية ، فإن  
العالم دين همفري بريدو قد أراد بوصفه لحياة محمد أن يقدم للمؤهلين الطبيعيين  
«Deisten» في عصره مرآة يرون فيها أنفسهم . ويصور محمداً ليس بوصفه أكبر  
الذجالين فحسب ، بل بوصفه أيضاً أحد المجرمين (١٦) . وحياتة محمد ينبغي  
أن تكون بمثابة انعكاس لصورة مزعجة للكفار والملحدين والمؤهلين الطبيعيين  
والإباحيين . وقد أراد بريدو أن يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة في  
الشرق وأن يثبت فيه أن النبي كان بمثابة سوط الله لمعاينة الكنائس الشرقية  
وحملها على التوبة النصوح .

٧ - بولانفلييه : Boulainvilliers :

وفي حين كان كل من ماراتشي وبريدو يرى في محمد أكبر المضلين فقد ذهب  
الكونت بولانفلييه إلى أقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخاً ، بل  
يظهر كمادح وكاتب روائي . وقد كان غرضه الواضح هو أن يرفع من شأن

الإسلام على حساب المسيحية . ومن أجل هذه الغاية عرض محمداً بوصفه إنساناً وأداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقّة . وقد مدح محمداً بأنه كان حكيماً قام بتمدين شعبه ، وبأنه كان أداة من أدوات الله وبأنه أتى بدين عقلي(١٧) .

٨ - جانييه J. Gagnier :

وقد حاول جان جانييه - أستاذ اللغات الشرقية في أكسفورد وخليفة بوكوك - أن يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفي عام ١٧٢٣ نشر حياة محمد لأبي الفداء(١٨) (١٢٧٣ - ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨) بالعربية واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانييه قام - بناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التي أرادت أن تتعرف على محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية - قام بتأليف كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانييه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء بولانفلييه(١٩) . أما الكتاب نفسه فإنه يعتمد اعتماداً دقيقاً على المؤلفين العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . أجل ، لقد احتفظ جانييه بخشوع نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يلم على الإطلاق ، ولم يصف شيئاً من عنده . فهو لا يريد أن يصف محمداً كما كان ، بل يريد فقط أن يجعل الأوربيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة أن كتابه قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت أفضل ما كتب عن سيرة محمد ، وقد اغترف منه كثيراً أو قليلاً كل المؤرخين ممن كتبوا عن حياة محمد(٢٠) .

٩ - جورج سيل G. Sale :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت في عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التي قام بها جورج سيل (انظر ص ٢١٦)(٢١). وفي «المقدمة المؤقتة» التي تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفاً لمحمد . فلم يكن محمد أبداً -في رأيه- واحداً من أمثال جابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذي ألحقه محمد بالمسيحية ينسب إلى جهله أكثر مما ينسب إلى خبثه(٢٢) .

١٠ - إيرهارت J. Ehrhardt :

وهناك كتيب من تأليف ياكوب إيرهارت كان يعد بالنسبة لعصره جهداً جديراً بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الأساسية للكتاب المعدودين وغير المعدودين في عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن أسباب ذلك(٢٣) . فهو يتناول - على سبيل المثال - الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمني والأخطاء الجغرافية ، والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمي محمد ، ويتناول أعمال السلب والنهب واللصوصية التي نسبت إليه ، وما يقال عن معجزاته وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك .

## ب - عصر التنوير الفرنسي

١ - فولتير Voltaire :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانييه عرضت في عام ١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة «التعصب أو محمد النبي» أول مرة في ليل Lille . وفي هذه المسرحية يصف فولتير النبي بنفس الطريقة القديمة بوصفه منافقاً عديم الحياء ودجالاً ، ومستبداً تحركه الشهوات الحسية ووغداً متعطشاً للدماء(٢٤) .



ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته إطلاقاً أن يصف محمداً كما يعرفه التاريخ ، وإنما استخدمه فقط لكي يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصب .

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة أخرى في مقالته الشهيرة عن الأخلاق «Essai sur les moeurs» . ففي هذه المقالة لم يعد محمد يظهر بوصفه «كبير المنافقين» ، بل بوصفه الرجل العظيم وبوصفه كرومويل (٢٥) Cromwell آخر ، جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمداً بوضوح على بولانقلييه .

## ٢ - أثر كتابات فولتير في الأوساط الثقافية :

لقد قرأ الكثيرون مقالة فولتير «في الأخلاق» بحماس . وسرعان ما أصبح محمد موضوعاً للأحاديث في صالونات العصر . وبعض المتخلفين عن الركب فقط مثل ديدرو Diderot في كتابه «رسائل إلى صوفي فولاند» تجرأ على القول بأن محمداً كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل (٢٦) . وفي مقابل هذه الآراء القديمة دأب الموسوعيون وأصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من إعجاب ديدرو الخفي بمحمد فإنه يصفه بأنه مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون Kompilatoren أو الكتاب المولعون بالجمع - كما يحدث دائماً - لكي يستغلوا هذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام توربين Turpin بتعريف جمهوره - في مجلدات تفتقد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهل - بهذا الفيلسوف (يقصد محمداً) الذي ثقفته الطبيعة والمشرع الذي لم يعتمد على عون من جانب العلوم .

وقد بدأت الأكاديميات نفسها التي تأثرت بالحركة (الجديدة) بدأت في

تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هو التدشين الرسمي لانتصار محمد .

وهكذا وضعت «أكاديمية النقوش والآداب» موضوعاً للمسابقة بعنوان «زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنة بوصفهم أصحاب مذاهب ومشرعين وأخلاقين» . وقد فاز في هذا الصدد باستوريت Pastoret .

وفي عام ١٨٠٥ أعلن قسم التاريخ والأدب الكلاسيكي بالمعهد عن مسابقة موضوعها : «تأثير محمد أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة» . وقد حصل أحد الألمان وهو أولزرنر Oelsner على أحد جوائزها .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ الجميع يقرءون القرآن الكريم ، وقد امتدح المرء أفكار محمد السياسية ونظرياته الأخلاقية ونظامه التشريعي . وأخيراً قدم سافاري ترجمة جديدة للقرآن (انظر ص ٢١٥)(٢٧) .

### (ج) من عصر التنوير الألماني إلى ظهور أول كتاب تاريخي نقدي عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ - ليبنتز Leibniz :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الألماني محمداً بوصفه داعية للدين الطبيعي . وكتب ليبنتز(٢٨) - على سبيل المثال- في مقدمة كتابه «في العدالة الإلهية» يقول : «لم يتعد محمد أيضاً من هذه التعاليم العظيمة للدين ، وقد قام أتباعه بنشرها بين الشعوب في أقصى بلاد آسيا وإفريقيا ، تلك البلاد التي لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد . وقد قضوا في كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التي كانت تقف موقفاً معارضاً للتعاليم الحقة التي تتمثل في وحدة الله وخلود النفس» .

٢ - ليسنج Lessing :

أما ليسنج (٢٩) فإنه يعبر في أحد أعماله «إنقاذ هيرونيموس كاردانوس» عن الاقتناع «بأن الأخبار التي كانت معروفة في عصر كاردانوس (٣٠) عن محمد وتعاليمه كانت أخباراً قاصرة جداً وممزوجة بألف من الأكاذيب التي كان المجادلون المسيحيون مولعين بأخذها على أنها حقائق ، إذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة أسهل . ولم تصل إلينا معرفة أمينة عن ذلك (أي عن محمد وتعاليمه) قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التي أطلعنا في الأغلب على أن محمداً ليس دجالاً عابثاً ، وأن دينه ليس مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات المرصوفة بجوار بعضها» .

وفي «شذرات فولفنبوتل» يرجع ليسنج تعاليم محمد إلى الدين الطبيعي كما فعل لبيتز :

«صحيح أن قرآن محمد والعقيدة التركية لها لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لأن مؤسس هذا الدين قد استخدم التضليل والعنف ، بل لأن هناك أيضاً (في هذه العقيدة) كثيراً من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التي لا ضرورة لها (٣١) . ولست أريد أيضاً أن أتحدث باسمه (أي باسم محمد) ، وأقل من ذلك كثيراً أن أرفع من شأنه على حساب الديانة المسيحية . ولكنني على يقين من أن هناك من بين من يحملون الديانة التركية مسئولية هذا أو ذاك من الأخطاء قلة قليلة جداً ممن اطلع على القرآن ، وأن هناك أيضاً قلة قليلة جداً من بين هؤلاء الذين قرءوه كان لديهم القصد لإعطاء كلمات (القرآن) معنى معقولاً يمكن للمرء أن يفهمه . وفي وسعي - إذا كان هذا مقصدي الأساسي - أن أبين أفضل ما في الدين الطبيعي من القرآن معروضاً بوضوح ومعبراً عنه إلى حد ما تعبيراً جميلاً» .

«وأعتقد أنني سأجد بسهولة الاستحسان في ذلك لدى الفاهمين إذا قلت إن كل شيء جوهري في تعاليم محمد يكاد أن يؤدي إلى الدين الطبيعي . وقد امتدح

العالم توماس هايد (٣٢) Thomas Hyde في كتابه (تاريخ ديانة الفرس القدماء وأصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٣٣) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء أن يعدهم من العارفين وأن يعدهم كذلك من المحايدين - امتدح محمداً بوصفه مجدداً للدين الحقيقي لإبراهيم .

« وأما جورج سيل - الذي يعد أوثق المترجمين والمفسرين للقرآن - فإنه يبين في مقدمته للقرآن أن مبدأ تعاليم محمد يقوم على توحيد الله أو على حقيقة أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك إلا إله واحد ، وأن القصد الذي يتمثل في نقل العرب المشركين من الوثنية إلى معرفة الله الواحد كان قصداً نبيلاً ومحموداً جداً ، وأن السيد (بريدو) قد زعم بلا سبب أن محمداً قد أتى للعرب بدلاً من الوثنية بدين سيء مثل الوثنية . ويقول السيد (سيل) بأن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التي يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة إله واحد حق تعد أموراً ممتازة إلى حد ما لدرجة أن المسيحي يود أن يراعيها حقاً» .

وفي بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر في الوقت نفسه تقريباً عالمان ألمان بترجمتين للقرآن من النص الأصلي قضايا في إعدادهما زمنياً طويلاً وهما دافيد فريدريش ميجرلين Megerlin وفريدريش إبراهيم بويزن Boysen (ص ٢١٧)(٣٣) . وقد ثبت أن جوته قد استخدم ترجمة أولهما .

٣ - جوته Goethe :

وقد اهتم جوته (٣٤) أثناء حياته كلها اهتماماً كبيراً بمحمد ، كما بين ذلك ياكوب مينور Minor بالتفصيل في كتابه «محمد لدى جوته» (٣٥) . وفي خريف عام ١٧٧٣ ظهر «نشيد محمد» وفيه يقارن جوته محمداً بنهر ينمو باستمرار ويجذب في سيره إخوته معه إلى الأب الخالد .

وفي كتابه «الشعر والحقيقة» يقول جوته إن هذا النشيد المدحى كان قد قصد

به في الأصل أن يكون إضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد أن يصور فيها كيف تؤثر العبقرية في الناس عن طريق الأخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية في ذلك وكيف تحسر .

وفي عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة أخرى إلى الاشتغال بموضوع محمد بأن قام - بناء على رغبة الدوق كارل أوجسطس Augustus وضد إرادته هو تماماً - بترجمة مسرحية فولتير عن محمد وإعدادها للمسرح .

وهناك أخيراً أكثر من اثنتي عشرة قصيدة من أشعاره في «الديوان الشرقي الغربي» تهتم بمحمد وبالقرآن . وفي الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته - بوصفه مؤرخاً- للحديث عن محمد وتعاليمه .

#### ٤ - جيبون Gibbon :

وفي السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر أيضاً الكتاب الشهير لجيبون (٣٦) عن «تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية» . ويتخذ جيبون إزاء محمد نفس الموقف الذي اتخذه توربين والذي يتمثل في أن مآثر محمد قد رفع من شأنها - في رأيه- تشويهات المسيحيين غير الحكيمة أكثر بكثير مما حققت منها . ولا يريد جيبون أن يقرر أيضاً ما إذا كان محمد متحمساً أو دجالاً لأنه ليست هناك إلا خطوة واحدة فقط من التحمس إلى الدجل (٣٧) .

#### ٥ - هردر Herder :

وعلى العكس من ذلك فإنه لم يكن هناك مجال للشك لدى هردر (٣٨) في أن محمداً كان في الحقيقة متحمساً Schwärmer . ويصف هردر محمداً بأنه : «مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة والزمان والمكان . فقد كان تاجراً

ونبياً وخطيباً وشاعراً وبطلاً ومشرعاً ، وكل ذلك حسب الطريقة العربية» .  
ويبدو أن سبب نبوته يتمثل في البغض لشناعة عبادة الأصنام والتحمس  
لتعاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمل الصالح . «وقد  
كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة التفكير الشاعرية لأمتة ولغة  
قبيلته ومواهبه الشخصية - كانت كلها كأنها الأجنحة التي حلقت به فوق نفسه  
وخارج نفسه» .

ولكن هردير يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالي :  
« هذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء والتكبر  
هو مرآة نفسه التي تبين مواهبه ونقائصه وميوله وأخطائه وخداع نفسه والمعونات  
الوقتية التي خدع بها نفسه وخدع الآخرين ، وذلك (كله) بدرجة أكثر وضوحاً مما  
يتبين في أي قرآن آخر لنبي من الأنبياء» (٣٩) .

#### ٦ - أولزرنر Oelsner :

وعلى أكتاف هردير يبرز أولزرنر في بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذي نال  
به أحد الجوائز في عام ١٩٠٨ . وعنده يعد محمد في الأصل متحمساً وجد الدليل  
على بعثته في قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل أن يخلط المرء بينه وبين مجرد إنسان  
دجال . وإذا لم تكن هناك أيضاً أغراض طموحية قد عملت على تحريكه في  
البداية فإنها قد أتت في أعقاب الحماس . وبنفس القدر الذي برد فيه الحماس  
لقضية الله أو قضية الوطن اشتد لديه الغرض الأناني عن طريق كل الوسائل  
المساعدة التي أكسبها له حماسه الناري السابق . وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد  
التوقيت الذي انتهى فيه خداع الذات وبدأ فيه الدجل تحديداً دقيقاً (٤٠) .  
ويصف أولزرنر محمداً بالتفصيل بأنه الداعي للإله الواحد وبأنه أستاذ في

الدبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقرى . ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب إلى دين للسيف ، وإن كان أولزنى أيضاً - كما كان فولتير من قبله - لا يرى إطلاقاً أن النجاحات التي حققها الإسلام يعود الفضل فيها إلى السيف وحده .

٧ - رينو Reynaud :

وقد قدم رينو (٤١) للبحث في حياة محمد إسهاماً يمتاز بقيمة خاصة في العرض الموجز الذي قدمه عن حياة محمد في كتابه «الأثار الفارسية والعربية والتركية في ديوان السيد الدوق دوبلاكا» (باريس ١٨٢٨) . وقد قام رينو في عام ١٨٦٠ بإكمال هذا العرض الموجز بصورة هامة على أساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره كمقال ضمن «تراجم عامة جديدة» التي أصدرها ديديو Didot .

وفي هذه المقالة يقدم رينو في البداية وصفاً تفصيلياً لحياة محمد بناء على أقدم وأوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصة بناء على القرآن الذي يعد أهم مصدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صورة واضحة لشخصية النبي ؛ ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيسية لحياة محمد وتعاليمه وأولها الحديث وأقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص . وبالإضافة إلى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث في حياة محمد ، ومن أمثلة ذلك :

هل كان محمد مصاباً بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحي ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفي النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول أهم تفاسير القرآن وأهم النشرات والترجمات للقرآن . وقد أضفى البيان الوافر للمراجع على المقالة

قيمة خاصة ، تلك المقالة التي قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث في حياة محمد  
في عام ١٨٦٠ .

٨ - هامر برجشتال Hammer - Purgstall :

أما المستشرق الشهير يوسف فوق هامر - بور جشتال(٤٢) - الذي كان  
لمؤلفاته تأثير قوي على جوته - فقد تناول محمداً أيضاً في المقام الأول في كتابه  
«صور لحياة الحكام المسلمين العظام» . وقد عرف برجشتال جزءاً فقط من سيرة  
ابن هشام . وفي مقابل ذلك كانت أمامه ثلاث من الكتب الأخرى التي  
استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوربيين وهي : «الخميس»  
للحسين الديار بكرى(٤٣) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد  
الله ، والترجمة التركية لقصص النبي من تأليف إبراهيم الحلبي(٤٤) والتي طبعت  
في القاهرة عام ١٨٣٣ .

ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد في نهاية كتابه على النحو التالي :  
« على الرغم من ضلال شهبانته ، وعلى الرغم من الجرائم التي سولتها  
لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الأثر لشرفه المهان عن طريق السخرية  
والاستهزاء(٤٥) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التي عبر عنها مؤرخون  
مشهودون ومستشرقون والتي تتمثل في أن محمداً لم يكن إلا مجرد كذاب ودجال من  
منطلق حبه للسيطرة ، على الرغم من كل ذلك فإننا يجب أن نثبت على رأينا وهو  
أن محمداً لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التي تتمثل في هداية شعبه من ضلال  
الوثنية إلى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع (أيضاً) بمواهب  
شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعاً ببعثته في ساعات حماسه ، ورأى - كما  
رأى غيره من الأنبياء الذين سبقوه - أنه أداة السماء لهداية شعبه ؛ وأنه مؤسس



واحد من الأديان الثلاثة التي انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب إلى كل بقاع الأرض وأنه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة» .

٩ - كارلايل Carlyle :

وفي عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل (٤٦) «حول الأبطال وتقدير الأبطال» الذي خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الإسلام . وكارلايل لا يعتبر محمداً أحق الأنبياء ، ولكن يعتبره نبياً حقيقياً . أما الرأي السائد عن حقيقة محمد والذي يتمثل في أنه كان دجالاً متعمداً وأن دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبي والإسفاف فإن كارلايل يعتبره رأياً باطلاً .

«فالأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هذا الرجل (يقصد محمداً) لا تسب أحداً غيرنا» . وأكثر من ذلك يصف كارلايل محمداً بأنه كان «نفساً عظيمة وهادئة ؛ لقد كان واحداً من هؤلاء الذين استطاعوا أن يأخذوا الأمور بجدية ، والذين وجهتهم الطبيعة نفسها لكي يكونوا مستقيمين» . فالأصالة والاستقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هذه الاستقامة كانت تشتمل على شيء إلهي ، «فكلمة مثل هذا الإنسان هي صوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية» .

ولم يكن محمد في حياته الشخصية من عشاق اللذة على الإطلاق . فقد كان متعاً بيته يعد من أكثر الأمور اعتدلاً . ومع ذلك «فلم يحظ أي قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظي هذا الرجل بردائه الذي كان يرقعه بيده» .

أما القرآن فإن كارلايل يطلق عليه أنه «بلبله ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجذب ، يشتمل على تكرير وإسهاب وتشابك لاحتد له ، وهو جاف وغير ناضج ؛ وباختصار هو سخف لا يطاق» (٤٧) .

ومع ذلك تكمن فيه قيمة أخرى تختلف تماماً عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس إنسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى أن تقرأ ؛ ولكنها نفس جادة وتفويض حماساً وتسعى سعياً جباراً لكي تعبر عن ذاتها في كلمات .

## ( د ) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد في القرنين

### التاسع عشر والعشرين

#### ١ - جوستاف فايل Weil :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة في البحث في حياة محمد . فقد ظهر في هذا العام أول عرض تاريخي نقدي لحياة محمد من تأليف جوستاف فايل (٤٨) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة تقل أو تكثر على كتاب جان جانييه الذي ظهر قبل ذلك بقرن من الزمان . ولكن جانييه - كما رأينا (ص ١٧١) (٤٩) - لم يضع لنفسه مهمة وصف محمد كما كان ، بل كان يكتفي بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أي نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة التي قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضعوا مضمونها لنقد تاريخي . فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه في كتاباته . وإذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التي كانت متوفرة لجانييه فإن ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ .

ويتمثل الفضل الكبير لفايل في أنه أول من قام بالمحاولة التالية :

أولاً : بحث ما قرره العرب حول مؤسس الإسلام بحثاً نقدياً وعزل الوقائع

التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

ثانياً : بحث طبيعة محمد بوصفه إنساناً ونبياً ومشرعاً دون الوقوع تحت أسر مذهبي .

ثالثاً : وأخيراً ، ترتيب القرآن - الذي يمثل مزيجاً مختلف الألوان من الأناشيد والصلوات والأساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظييات - ترتيباً زمنياً .

ومن أجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين (ص ٢٢٧)(٥٠) ، وبالهوامش العلمية لكل من ماراثشي (ص ٢١٤) وسيل (ص ٢١٦)(٥١) وإن كانت هذه الهوامش ليست دائماً تعد صائبة .

وبعد ذلك أعاد فايل قراءة تاريخ أبي الفداء من جديد (ص ١٢٨)(٥٢) ، وكان نويل فرجيه(٥٣) Noël des Vergers قد بذل في هذا الكتاب جهداً مشكوراً كناشر ومترجم وشارح . وفضلاً عن ذلك درس فايل بالإضافة إلى جانبه مختلف السير الأوربية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التي كتبها رينو (ص ١٧٥)(٥٤) وما بعدها) ؛ وقرأ أيضاً مؤلفات جايجر Geiger (ص ١٠١)(٥٥) وما بعدها) ، ومؤلفات جيروك Gerock (ص ١٠٩)(٥٦) وما بعدها) عن علاقة المذهب المحمدي باليهودية والمسيحية .

وأخيراً جمع فايل شيئاً فشيئاً ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر وريلاندي وبوكوك ، ومذكرات أكاديمية باريس ومجلة توننجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضاً عن مصادر شرقية جديدة تماماً . وقام من أجل هذه الغاية برحلة إلى جوتا Gotha . وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التي تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن أكثرها فائدة

بالنسبة لهذه الغاية كتاب «إنسان العيون» لمؤلفه علي الحلبي (٥٧) في أربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب «الخميس» لحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري في مجلدين كبيرين .

صحيح أن هذين المؤلفين قد عاشا في القرن السادس عشر ، ولكن نظراً لأنهما لم يغترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزما أيضاً بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما - نظر لذلك فإنهما يمكن - حسب رأي فايل - أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ إفالده (٥٨) Ewald على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام (ص ١٢٩) . وأخيراً حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركي للمقاطع الثلاثة والستين التي لخص فيها إبراهيم الحلبي سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذي أصبح فيه فايل مزوداً بأفضل الوسائل المساعدة قام في البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيراً بوصفه مؤرخاً القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التي قام بفحصها فحصاً نقدياً . وقد اعتمد هنا في عرضه على المصادر بقدر الإمكان .

وهكذا حصلنا على أول كتاب تاريخي نقدي لحياة محمد . ولكن المرء يجد بجانب ذلك (في كتاب فايل) ليس فقط الحديث عن تعاليم العقيدة ، بل يجد أيضاً عرضاً لأهم قوانين العبادة وقوانين الأحوال المدنية والجنائية وقوانين الدولة في الإسلام وذلك في علاقتها بالحياة الخارجية لمحمد . أما حديث فايل عن القرآن في القسم الأخير من كتابه فقد قام في السنوات التالية لذلك بإكماله في كتابه «مقدمة تاريخية نقدية في القرآن» (ص ٢٢١) (٥٩) . كما أن بحثه عن «الأساطير

التي أخذها المسلمون من الكتاب المقدس» - الذي ظهر عام ١٨٤٥ - يشكل أيضاً إضافة مكملة في جوانب معينة لمؤلفه الرئيسي ، وتشتمل الملحقات بصفة أساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة أمينة من المصادر ، وبصفة خاصة اقتباسات من كتاب إبراهيم الحلبي ، بوصفها أسانيد للدعاوي التي كانت تعد جديدة أو تلك التي كانت حتى ذلك الحين محل نزاع .

#### ٢ - كوسان دي برسيفال Perceval :

أما حديث كوسان دي برسيفال (٦٠) عن محمد في المجلد الثالث من كتابه «المقالات» فإنه لا يشكل عملاً مكملاً لعمل فايل النقدي . فكوسان كثيراً ما يروي ما تقوله المصادر أكثر من اهتمامه بالبحث في استقلال . لقد كان حقاً مزوداً بمعارف لغوية أكثر عمقاً ودراسات تاريخية أولية أفضل من أسلافه ، وكان تحت يده أيضاً مراجع مصدرية أقدم وأوثق (كما كان لدى غيره) . وهكذا فإن فضله الرئيسي لا يتمثل في تنمية البحث النقدي ، بل يتمثل في أنه في الغالب يجعل المصادر الأصيلة هي التي تتحدث .

#### ٣ - إرفينج Irving :

أما حياة محمد التي كتبها واشنطن إرفينج (٦١) - على أساس من مصادر أسبانية وكتاب أبي الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل - فإنها على ما فيها من صياغة براءة ليس لها أهمية علمية .

#### ٤ - رينان Renan :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دي برسيفال قدم رينان (٦٢) رؤية

مستفيضة عن محمد وعن نشأة الإسلام ، ولكنه لم يأت في ذلك بجديد . ومصادر نشأة الإسلام - التي تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له أكثر إبهاماً وغموضاً من أي وقت آخر - تبدو لرينان واضحة لدرجة أنه يتحدث عن «دين نشأ في وضوح النهار» .

أما الشيء الهام (الذي قدمه رينان) فهو تلك النظرة السريعة على البحث في حياة محمد وتقديم بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الإسلام بأنه «دين طبيعي عقلي يتصف بالجدية والليبرالية والبرود» .

٥ - إرنست ماير E. Meier :

ويعتمد على فايل أيضاً إرنست ماير (٦٣) في مقاله التي بين في بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضاً على أكثر المعارف أهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

٦ - وليم موير W. Muir :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد - بجانب فايل - إلى العالم الانجليزي وليم موير (٦٤) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذ عام ١٨٥٣ في مجلة كلكتا «Calcutta Review» . ويشتمل المجلد الأول في البداية على المقدمة التي تتكون من الفصول الأربعة التالية :

١ - المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .

٢ - السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقاً للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .

٣ - تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .

٤ - أجداد محمد وتاريخ مدينة مكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد في عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة في المجلد الأول يأتي الفصل الأول من السيرة الحقيقية التي تستكمل في المجلدات الثلاثة التالية في سبع وثلاثين فصلاً حتى تصل إلى النهاية . وفي الفصول التي تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئاً جديداً إلا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق في الفصل الثالث «عقيدة محمد في إلهاماته أو وحيه» . ومن الفصول الجيدة أيضاً الفصل السابع «علاقة الإسلام بالمسيحية» ، والفصل السابع والثلاثون «شخص محمد وأخلاقه» .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيراً بصفة خاصة في الحديث عن التاريخ الخارجي المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذي يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استفاه المؤلف من كتاب كوسان دي برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذي يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث في درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة مذهبية حادة فإن عرضه (للموضوعات) كان باستمرار عرضاً واضحاً وجديراً بالتقدير .

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية - التي اختصرت فيها بعض النقاط - في عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة في مجلد واحد في عام ١٨٩٤ ، ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة في عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم يمتد إلا إلى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح الاقتباسات وإضافة بعض الإشارات في الهوامش .

أما كتاب موير «محمد والإسلام» فهو اختصار للكتاب الكبير «حياة

محمد» . ويدين المؤلف بالفضل كثيراً إلى كل من فايل واشبرنجر . وقد أخذ الصور إلى حد ما من الكتاب المصور الرائع «مدنية العرب» الذي ألفه ج. لوبون . Le Bon

٧ - ألوز اشبرنجر A. Sprenger :

وأما الكتاب الثالث الكبير الذي تم تأليفه طبقاً لوجهات نظر تاريخية نقدية فقد كان من تأليف ألوزا شبرنجر (٦٥) . وكان اشبرنجر قد نشر في عام ١٨٥١ مؤلفاً عن حياة محمد كتبه بالإنجليزية ، ولكن لم يظهر من هذا المؤلف إلا القسم الأول فقط . ويشتمل هذا القسم الأول - بعد مدخل قصير - على الكتابين الأولين . وقد تناول في أولهما في فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ؛ والأساطير الإسلامية حول هذين الموضوعين ؛ ومصادر سيرة محمد . وروى في الكتاب الثاني في فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله إلى المدينة . وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن سيرة محمد «بناء على مصادر لم تستخدم من قبل إلا قليلاً جداً» . وفي المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه . وقد قضى المؤلف أجمل سنوات عمره في الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التي تمثل موضوع بحوثه . وعمل مدة اثني عشر عاماً مشرفاً على المعاهد العليا الإسلامية في الهند العليا . وقد استغل هذا الوقت لكي يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات شرقية ، وليتعمق في لغة وروح الشرقيين . وبعد أن انتهت سنوات التجول تمثلت مهمته في الاشتغال بالمادة (العلمية) التي جمعها في الشرق (بهدف كتابة) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمي الذي نملك وحدنا مصادر عن أصل نشأته (٦٦) . وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان موير



يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يرى فيه إنساناً فذا .  
وفي ألمانيا سلب المرء من كلمة نبي كل ما تعنيه ثم زعم أنه كان نبياً .  
ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمداً لم يكن لا بطلاً بالمعنى الذي يقصده  
كارلايل ولا أداة للشيطان . وقد أدت نتائج بحوثه إلى اقتناعه بأن الإسلام «لم  
ينبع من النسب والحسب ، ولا من إرادة اللحم (٦٧) ولا من إرادة رجل» ، بل  
من متطلبات العصر . وإذا كان كارلايل قد قصد أن يقول عن محمد كل ما هو  
خير مما يستطيع المرء إثباته ، فإن اشبرنجر ينهج نهجاً مضاداً تماماً ، ويريد أن  
يلفت النظر عند كل مناسبة إلى الضعف الإنساني لدى محمد . وحيث أنه ليست  
لدينا أخبار عنه غير تلك الأخبار التي لدينا من جانب محبيه فإنه «يجب على كاتب  
السيرة أن يقوم بالدور الخبيث لمثل الاتهام Advocatus Diaboli ، وأن يستخرج  
مساويء أخلاقه من كلمات مدح محبيه» (٦٨) .

وقد قام اشبرنجر يقيناً بتنفيذ هذا الدور ببراءة! ومن خلال مهنته كطبيب  
ينظر في أخلاق محمد بشغف من وجهة النظر الطبية وينتهي إلى الاقتناع بأن  
محمداً كان إنساناً هستيرياً . وقد عارض سنوك هورجرونيه ذلك (قائلاً) : إن  
الأهمية الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذي يميزه عن غيره من  
الهستيريين ، وليس في الأحوال المرضية التي يشترك معهم فيها (٦٩) .

وإذا كان هذا الرأي أيضاً (من جانب اشبرنجر) عن محمد لا يعد رأياً متيناً  
فإن كتاب اشبرنجر مع ذلك قد أصبحت له أهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث  
كله في موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة بأعظم قدر من  
الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسي لحياة محمد . ويصرح في فخر بأنه «قد مهد  
الطريق لفهم القرآن» . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلثي القرآن تقريباً .  
وطبقاً لمقصد اشبرنجر فإن كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماماً من

القراء : للباحث الذي لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب في دراسة متعمقة لطبيعة الإسلام ؛ وللقاريء غير المتعمق الذي يكتب بنتائج بحوث الآخرين . ولكن فيها وزن كان على حق في حكمه (على عمل اشبرنجر على النحو التالي) :

«يعد كتاب اشبرنجر ينبوعاً ثرياً في المادة والأفكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ؛ ولكنه غير مناسب إطلاقاً للإطلاع بالنسبة لدائرة أوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من أنه قد خصص لذلك» . (محمد في المدينة ص ٢٦) . ولكن فيها وزن لا يريد أيضاً أن ينكر الأهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

«على العكس من الطريقة التي كانت سائدة إلى حد ما زمناً طويلاً في ألمانيا ، والتي كانت تنظر إلى الأدب العربي على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فإن اشبرنجر قد كان له تأثير منعش إلى أقصى حد عن طريق شعوره الحي والسليم بالنسبة للأشياء ، وذلك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماماً بعيداً عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعي صميم ، وفي ذلك تكمن قوته ، مع كل ألوان الضعف التي تلازمه أيضاً من أجل ذلك» . (محمد في المدينة ص ٢٤) .

وفي الختام نورد بياناً قصيراً بمضمون المجلدات الثلاثة :

يسير المجلد الأول (في البحث) حتى عام ٦١٦ م ، فيصف شباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبى . أما المجلد الثاني فإنه يتناول في تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى إلى الحبشة عام ٦١٦ م حتى الهروب (٧٠) إلى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث في البداية على مقدمة ضافية تعرفنا - بعد إيراد بعض الملاحظات التمهيدية - بالمصادر التي اعتمد عليها المؤلف . فالقرآن

نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتاب سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جداً للمؤلف ساعدته على تأليفه كتابه .  
والمضمون الحقيقي للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتناول فيها ظهور محمد في المدينة بوصفه مشرعاً وفاتحاً وحاكماً حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جداً للأسف ، ويشكل «مزيجاً غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية» . (فيها وزن) .

#### ٨ - نولدكه Nöldeke :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر - وهي فترة تعد ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبحث في حياة محمد - جاءت بعرض شعبي ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف «تاريخ القرآن» . ويعبر نولدكه (٧١) نفسه في المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

«على الرغم من البحوث التي أجريت بحماس بالغ في العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن أصل نشأة الإسلام - وأخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دي برسيغال وموير واشبرنجر - فإن مجال البحث لم يختتم إطلاقاً ، ولهذا فإني مع ذلك كله أعتقد بأن عرضاً شعبياً لتاريخ محمد مرتكزاً على المصادر يعد عملاً مناسباً للعصر وأمرأً مشكوراً . وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية ، وكذلك كل المجادلات ، ولم أذكر من الاقتباسات إلا حوالي ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فإنه يصح لي أن أؤكد أن عملي يستند تماماً على بحثي الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هي في جوهرها تلك الأسس التي تركز عليها الفصول الأولى من كتابي «تاريخ القرآن» .

وقد وضعت أمام عيني أولاً أمثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة

العربية ، ولكنني آمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا مثار اهتمام المستشرقين أيضاً . وقد أوليت الأحوال السياسية والشعبية قدراً خاصاً من الاهتمام ؛ وأفادني في ذلك بصورة أساسية دراساتي الطويلة والمتواصلة للشعر العربي القديم . وهناك قصور يجب أن أعترف به ويتمثل في عدم الدقة في الترتيب الزمني للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف اشبرنجر العلمي إلا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكنني كثيراً ما اضطررت أيضاً إلى أن أخالف آراءه» .

ويقع كتاب نولدكه في سبعة فصول (على النحو التالي) :

١ - المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوي .

٢ - من الظهور النبوي لمحمد حتى هروبه إلى المدينة .

٣ - من الهروب حتى موقعة أحد .

٤ - من موقعة أحد حتى حصار المدينة .

٥ - من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .

٦ - من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .

٧ - أخلاق محمد .

وفي تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه في أن يتم ذلك في موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادة . ولكي يكون المرء منصفاً لمحمد فإنه يتحتم عليه أن ينظر إليه في حياته ليس فقط بوصفه نبياً وواعظاً وأميراً ، بل ينظر إليه أيضاً في تعامله مع أتباعه وأصدقائه وفي حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا في ضوء جميل . أما ما يتعلق بأخطائه فإنه

يجب على المرء أن يفكر في أن هذه الأخطاء كانت في قدر كبير منها أخطاء عصره وشعبه ، وأنه كان يبدي بجانب ذلك شائلا على أقصى درجة من النبل ، وأنه هو نفسه كان مقتنعاً بمهمته لإنقاذ إخوانه في الإنسانية من العذاب الأبدي عن طريق هدايتهم إلى العقيدة الصحيحة ، ولجعلهم مشاركين في السعادة السماوية .

٩ - كريل Krehl :

بعد التراجم الكبيرة والعميقة لحياة محمد من جانب كل من فايل وكوسان دي برسيفال وموير واشبرنجر ونولدكه طرأت حالة من الركود في البحث (في هذا المجال) . ثم جاءت الثمانينات من القرن التاسع عشر مرة أخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعين بفارق زمني قصير وقام بتأليفهما لودولف كريل (٧٢) وأوجست موللر .

ومحاول كريل أن يبحث بصفة رئيسية التطور الديني لمحمد عن طريق الأحداث السياسية ، ويسعى جاهداً في أن يكون محايداً بقدر الإمكان في هذا البحث . ويعترف شاكراً بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيح البخاري ومسلم - اللذين يشتملان على الكثير الذي لا يحصى من الملامح المميزة جداً لمحمد وأقواله الثابتة بطرق جيدة - هذه الدراسة قد ساعدته في بحثه بصورة أساسية .

ومع أنه يعلم يقيناً أن هذه المآثورات غالباً ما اصطبغت بأغراض لصالح محمد إلا أنها رغم كل ذلك تظل في رأيه مصدراً رئيسياً لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الإسلام في ضوء آخر ، وهو ضوء أفضل إلى حد بعيد . ومع كل أخطائه يجب أن يعترف المرء بأن محمداً هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع

شعبه تماماً وبلا جدال على درجة عليا من الدين . «وإن متحمساً دجالاً ومراثياً وإنساناً يقوده طموحه الأناني فقط لم يكن له أن ينجح في ذلك بكل تأكيد . فالقوة التي بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة أخرى بعد موته إذا لم تكن قد بنيت على فكرة عليا وعلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكراً وروحياً ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على إثرها عبر القرون تراث واسع المدى جداً وإلى حد ما غني بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية» .

أما القسم الثاني (من كتاب كريل وهو) «التعاليم» فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم (الإسلامية) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها (ص ٢٦١ وما بعدها)(٧٣) .

١٠ - أوجست موللر A. Müller :

قام أوجست موللر(٧٤) في إطار عرضه الشامل للإسلام بتقديم عرض لحياة محمد أيضاً ينبنى على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكماً موزوناً تماماً على محمد . وبالمعنى التاريخي الخالص - كما يقول - يكون من الصعب على المرء أن ينكر على محمد اسم النبي . حقاً لا يستطيع المرء أن ينكر أنه كان واقعاً تحت حالات عصبية مختلفة نتيجة لمزاجه الذي كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات في بعض الأحيان إلى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحالات لم تكن أبداً ذات طبيعة صرعية ، بل كانت تتلاءم أيضاً مع الانفعالات العصبية المعروفة (التي تعترى) الأشخاص من ذوي الحس المرهف دينياً . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعاني تحت (وطأة) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء أيضاً أن يشكك في إخلاصه الكامل في الفترة المكية .

وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر على محمد صفة نبي حقيقي فإن مولر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك إلا جانباً واحداً فقط من الطبيعة الإلهية ، وأنه ينقصه تماماً مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقي للحياة . ثم يصدمننا لدى محمد في المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين إلى السياسة في تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكي يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك في البداية دون وعي ، ثم بنصف وعي ، وفي النهاية بوعي كامل! (٧٥) .

وقد استخدم مولر في كتابته لقسم عظيم من تطور تعاليم محمد المدونات التي كانت تحت تصرفه من مخطفات صديقه أوتولوت Otto Loth الذي كان أستاذاً في ليبترج وتوفي للأسف مبكراً .

١١ - هوبرت جريمه H. Grimme :

أما كتاب حياة محمد الذي كتبه هوبرت جريمه (٧٦) - وأعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثاني الذي يشتمل على مقدمة في القرآن ونسق علم الإلهيات القرآني (انظر ص ٢٠٠) - فإنه يعد جهداً مستقلاً جداً في مقابل المآثورات العربية ، وكذلك في مقابل المؤلفات الأوربية في السيرة . وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع - لدى استخدامه لهذه المادة - إلى حد ما طريقة أخرى غير تلك التي اتبعها غالبية أسلافه ، وبذلك توصل في الغالب إلى نتائج مختلفة تماماً عما توصلوا إليه .

ويرى جريمه على وجه الخصوص أن من الضروري اتخاذ موقف أكثر حذراً من الأحاديث . صحيح أن مجموعات الأحاديث التي ترجع إلى زمن أقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقي ولا غني عنه لتاريخ محمد ؛

ومن المؤكد كذلك أن التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجرأة في أي مجال من مجالات الأدب مثلما فعله هنا في هذا المجال . ولكن المرء لا يزال بعيداً عن التوصل إلى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف (٧٧) .

وفضلاً عن ذلك فإن مجموعات الأحاديث غالباً ما تقدم كثيراً جداً من الأمور التي لا أهمية لها . وأخيراً فإنها لا تقدم إلا روح الحقة المدنية ولكنها لا تقدم إطلاقاً روح الحقة المكية (٧٨) . ولكن من حسن الحظ أنه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوي للحقيقة التاريخية في القرآن . وقد حاول المؤلف أن يستخدم القرآن بشكل مثير تماماً . ولكن هناك أموراً كثيرة تحمل هنا أيضاً على الحذر . فمن الأمور التي لا تزال مثار جدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية . ومن أجل ذلك يقدم المؤلف في القسم الثاني فصلاً خاصاً عن «شكل السور القرآنية وتتابعها الزمني» ويصل فيه إلى بعض النتائج المخالفة (٧٩) .

ويذهب جريمه إلى القول بأن محمداً كان في المقام الأول مثيراً للفتن أو محرصاً Agitator ذكياً وسياسياً كبيراً . وفي المدينة تطور محمد - حسب رأي جريمه - في تزايد مستمر إلى دجال عن وعي بذلك (٨٠) . ولكن الأمر الجديد تماماً هو دعوى جريمه بأن محمداً عند ظهوره الأول (بدعوته) لم يكن يدعو إلى دين إطلاقاً ؛ بل كان يدعو إلى شكل من أشكال الاشتراكية . فالإسلام «لم يظهر إطلاقاً بوصفه نسقاً دينياً في الحياة ، وإنما بوصفه محاولة لشكل من أشكال الاشتراكية ليوافق ما كان سائداً إلى حد بعيد من أحوال أرضية سيئة معينة» (٨١) .

وقد كان التناقض المخيف بين الأغنياء والفقراء - والذي كان سائداً في مكة - هو الذي دفع محمداً إلى المطالبة بضرورة أن يدفع كل فرد ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . ولكي يجد محمد آذاناً صاغية لهذه الدعوة استخدم عقيدة يوم



الحساب كوسيلة إجبار روحية .

١٢ - سنوك هورجرونيه Hurgronje :

وقد عارض هذا الرأي في محمد سنوك هورجرونيه في مقالة مسهبة في «مجلة تاريخ الأديان» . وقد تضمنت هذه المقالة تفصيلاً رائعاً لرأي جريمه . فكل كتاب سيرة محمد من الأوربيين تصوروا - كما يقول هورجرونيه في اعتراضه - أن محمداً قد شعر وهو في سن الأربعين بأنه مدفوع لدعوة قومه إلى دين . وأحد هؤلاء الكتاب قد أراد أن يعطي الانطباع بأن هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول إلى السلطان والنفوذ فحسب . وقد ذهب «موير» إلى القول بأن هذا الشيطان قد ظهر لمحمد في صورة رسول إلهي . وبالنسبة لاشبرنجر كانت دعوى المستيرية هي التي خدمته لكي يوضح أن محمداً كان ظاهرة دينية . وأخيراً فإن المؤرخين من أمثال كارلايل الذين رأوا في محمد عبقرية فذة - كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق في اعتباره عبقرية دينية .

والسؤال الكبير الذي يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو :

ما أصل الاصطفاء الديني لدى محمد ومن أين أخذ أفكاره الدينية ؟

إن أفكاره الرئيسية هي - مع بعض التغييرات في الشكل - تلك الأفكار التي تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية . وفي التفاصيل بيدي وحيه تارة الصبغة اليهودية ، وتارة أخرى الطابع المسيحي ، وتارة ثالثة بيدي أموراً متنوعة لخيال حر نسبياً مبني على أساس يهودي مسيحي .

ولكن محمداً لم تكن لديه إلا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلاً الكتاب المقدس أو علم العقيدة الأرثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك في صحته «Die apokryphe Literatur»

لهذين الدينين (٨٢) . وقد كان محمد فضلاً عن ذلك رجلاً أمياً : وهكذا ظلت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه . وعن طريق الحديث فقط مع أتباع هذين الدينين تعرف محمد عليهما كما كانا قائمين في بلاد العرب حينذاك . ويضاف إلى ذلك أن من الأمور التي تركت لديه انطباعات خاصة كان فن قراءة النصوص المقدسة أو فن تلاوتها وترتيلها في صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وأنه قد سمع الناس يقولون - واعتقد (ما يقولون) بلا حدود - أن الكتب والألواح التي يقرؤها اليهود والمسيحيون في صلواتهم والتي تتضمن شرائعهم ومؤسستهم ليست ذات مصدر إنساني ، بل مصدرها إلهي .

ولكن كيف تكوّن لدى محمد مفهوم الوحي ؟

في البداية لم يكن محمد يلحظ إطلاقاً الموقف العدائي الذي تتخذه الطوائف والكنائس المختلفة بعضها من بعض . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الطوائف والكنائس العديدة التي كانت تعادي بعضها بعضاً خارج هذين الدينين ، كل ذلك قد بدا في التصور الساذج لمحمد أنه يرجع إلى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد تصور البشرية - من حيث أنها تملك نعمة الوحي - مقسمة في «جماعات» يمكن أن تتميز كتبها وألواحها في الشكل والمضمون ، ولكنها جميعاً قد جاءت وحيّاً من لدن إله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة - في رأيه - عن طريق إنسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه إلى كلمة الله بوصفه نبياً ومبعوثاً أو نذيراً . وهناك عدد كبير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهرية . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب - في نظر محمد - أمراً مختلفاً عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختاراً لشعبه الذي ينتمي إليه (٨٣) . وهكذا كان في وسع محمد أن يفترض بلا عناء أن أتباع الدينين القائمين الموحى بهما يمكنهم أن يعترفوا به بوصفه نذيراً

مرسلاً من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أي ضرر بمعتقداتهم (اليهودية والمسيحية) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود في المدينة اتصالاً مباشراً كان لابد له حينئذ أن يعرف أن اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا إطلاقاً بأصالة بعثته الدينية .

ولكن نظراً لأنه من ناحيته كان مقتنعاً بشرعية بعثته وكان يعتقد أنها من جنس بعثة موسى وعيسى وأسلافهما ، فقد أدى به ذلك بطبيعة الحال إلى نتيجة مؤداها أن اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحي الذي لديهم تفسيراً سيئاً . وعليه إذن أن يقوم بواجب تصحيحهم ! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع أن يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه أيضاً فضلاً عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها (٨٤) .

وفي الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد أيضاً شروعاً حقيقياً في التعرف بعض الشيء عن قرب على التاريخ التقليدي الموروث للوحي السابق ، وحصل - مع بعض التغييرات الضرورية - على ما أمكن أن يخدمه في التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما في السابق أكثر من مرة على حقيقة بعثته ، ولم يكن في ذلك الاستشهاد شيء من الحكمة (٨٥) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعملية التحرر هذه ؛ وسنقتصر على إثبات أن محمداً لم يتوصل إلى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدرج شيئاً فشيئاً . ففي حين كان إبراهيم يعد في الوحي السابق [الذي نزل على محمد] واحداً من أسلاف محمد العديدين فحسب ، يصبح الآن [بالنسبة لمحمد] رائده ومثله الأعلى على الإطلاق . وقد استمد إبراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من أمرين توصل محمد إلى معرفتهما أولاً في المدينة . الأمر الأول يتمثل في أن إبراهيم - الذي يقده اليهود والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله - لم يكن

يهودياً ولا مسيحياً (٨٦) . وكون محمد قد جعل اصطفاءه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتلك الأبوة مكنه من تفادي اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعاة تامة ، واتهامات المسيحيين أيضاً الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثاني فقد كان يتمثل في أن محمداً قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من إبراهيم الأب الأول للعرب . وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال إلى الاستناد إلى أب الجنس الذي ينتمي هو إليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصاعداً بأنه ذلك النبي الذي جاء لإكمال العمل الذي بدأه الأبوان إبراهيم وإسماعيل . فالإسلام الذي دعا إليه محمد كان هو نفسه تماماً ذلك الذي دعا إليه إبراهيم . وقد كان إبراهيم - الأب الأول للعرب - مثل محمد تماماً مسلماً وحنيفاً . ولكن إبراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبي الأب محمداً أيضاً في إدخال طقوس العبادة المكية في الإسلام بعد أن خلصها من بعض المراسم التي تكشف بوضوح عن أصل وثني . وكان إبراهيم قد دفع بإسماعيل وأمه إلى بلاد العرب . وفي وسع المرء إذن أن يفترض أنها قد جاءت إلى مكة وأساسا الكعبة هناك بناء على أمر إلهي . وهذا الافتراض يتضمن بطبيعة الحال أن نسل إسماعيل قد أفسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

إن صلات محمد باليهودية والمسيحية - كما وصفناها هنا - وتاريخ تطور أسطورة إبراهيم في عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماماً الرأي الذي يذهب إلى القول بأن دعوة محمد قد استندت إلى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون إلى شيء من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين إبراهيم (٨٧) . وبعد أن وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية يطرح

السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية .

لقد كان المرء في السابق يرى بطريقة عامة أن محور دعوة محمد يتمثل في كفاحه ضد الوثنية لصالح (عقيدة) التوحيد الصارم . ومن المؤكد - كما يرى سنوك هورجرونيه - أن وحدة الله كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية للإسلام ، وقد نالت هذه العقيدة فيما بعد أهمية متنامية باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الالهية ضد الوثنية وضد التثليث . الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية . فقد كانت هناك بالأحرى منذ البداية فكرة احتلت مكان الصدارة من تفكيره وسلوكه وهي فكرة يوم الحساب . فالأمر الذي كان يقلقه هو الاقتناع بأن الناس جميعاً سوف يضطرون في يوم من الأيام للمثول أمام الله للحساب وأنه لن يكون أمامهم مخرج آخر غير باب النار أو باب الجنة (٨٨) .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان في عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعاً بعد بعث الأموات ، ومن ناحية أخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التي تتعرض لها من عصر إلى عصر الشعوب التي تتمرد على رسل الله . وقد كانت هذه الأفكار المتمثلة في الكارثة النهائية وبعث الأموات والحساب والنار والجنة هي التي دفعت محمداً إلى إنعام الفكر وإلى النبوة . وقد عرضت أقدم الآيات القرآنية هذه القضايا بإثارة عاطفية تكاد أن تكون في صورة وحشية . وقد اتخذت هذه القضايا فيما بعد أشكالاً أكثر ثباتاً وأكثر تقليدية . وأخيراً عندما أصبح النبي على رأس جماعة تحتم عليه أن يقوم بتنظيمها ، وعندما توقف الصراع ضد الكفار في محيطه - ظلت عقيدة العالم الآخر عنصراً أساسياً من عناصر الإسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحساب لم يعد يظهر في الوحي المحمدي إلا نادراً (٨٩) .

إن فكرة المحكمة الإلهية ، التي كانت فكرة مشتركة بين اليهود والمسيحيين ،

قد أُرقت محمداً وأقضت مضجعه إذن منذ البداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طريق الوحي يقينية يوم الحساب ، وليس هذا فحسب ، بل عرفوا أيضاً الأوامر التي أعطتهم مراعاتها اليقين بأنهم سيكونون من الناجين في يوم الحساب . (أما العرب فلم يأتهم نذير) «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك» (سورة ٢٨ آية ٤٦) .

ولم تكن المساواة التي أقرها محمد بين الشعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هذا الوحي السابق (في اليهودية والمسيحية) كان مقررراً لشعبه أو مقررراً له هو . فكيف إذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟ لقد أجابت عن هذه القضية الحياتية (المصيرية) آيات القرآن التي ينظر إليها بالإجماع على أنها أقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الأصوليين أو من جانب النظرة النقدية أيضاً .

فإذا أراد المرء أن يعتبر محمداً إنساناً قد أعطى له حد أدنى فقط من الروح النبوي ، أو إذا أراد أن يعتبر أن الشيطان قد تلبسه أو أنه إنسان هستيري أو مصاب بالصرع ، فإن الأمر الذي لا جدال فيه أنه كان لديه المزاج العقلي الخاص الذي يدفع أناساً معينين إلى إنعام الفكر وتعذيب أنفسهم بمسائل دينية إلى أن يجدوا حلاً لها . ولم يكن هناك في الماضي (بالنسبة لمحمد) أحد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التي أقضت مضجع محمد بوحي يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير أنه لم يكن هناك أحد من أمثال هؤلاء بين معاصريه . وقد أتى إليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسه معيناً من قبل الله لإخراج قومه من الظلمات إلى النور! وإذا كان سنوك هو رجرونيه قد أثبت بذلك أن فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة في دعوة محمد فإنه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التي

تتمثل في القول بأن محمداً قد ظهر أولاً بوصفه من قبيل المصلحين الاشتراكيين .  
وعلى الرغم من ذلك فإن سنوك هورجرونيه يخصص فصلاً أخيراً مستفيضاً لمناقشة  
هذا السؤال : هل كان محمد اشتراكياً ؟

وفي البداية يقدم هورجرونيه اعتراضين عامين (ضد دعوى جريمه) :

(١) كيف لم تتجه معارضة المكيين على الإطلاق - بناء على شهادة القرآن القاطعة  
- ضد الزكاة التي كانت في رأي جريمه في مقدمة دعوة محمد ، بل انجهدت

المعارضة باستمرار وفي المقام الأول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب ؟

(٢) هل كان محمد - فضلاً عن ذلك - يدعو إلى عقيدة يوم الحساب فقط لكي

يجبر المكيين البخلاء على دفع الزكاة - حسب رأي جريمه ؟ (٩٠)

ألم يكن في وسع محمد أن يجد لذلك حينئذ وسيلة أفضل من تلك

العقيدة التي لم يكن المكيون يؤمنون بها ، وهي عقيدة يقول عنها جريمه

نفسه إنها كانت أكثر النقاط ضعفاً في الإسلام الأصلي !

وحقيقة الأمر هي أن فرض الزكاة قد ذكر مع أمور أخرى دون أن تضاف

إليه أهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان رأي جريمه . ولكن هناك

أسباباً خاصة تضاف إلى ذلك : فكلمة الزكاة التي ترجمها جريمه بالضريبة

(Steuer) لم تكن تعني إطلاقاً معنى الضريبة في العصر الأول للإسلام قبل

الهجرة ، بل كانت تعني ممارسة اختيارية لفضيلة «البر والإحسان» . وقد تم بعد

الهجرة فرض «ضريبة» معينة ، ولكن محمداً لم يكن يستخدم هذه الإيرادات

للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته

الحربية . وقد أصبحت هذه «الضريبة أولاً نظاماً دائماً في عهد أبي بكر وأضحت

«عموداً» من أعمدة الإسلام ، وأسهمت إسهاماً كبيراً في انتشار القوة

وتعد «فضيلة البر والإحسان» فضيلة شرعية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد في بعض آياته بأن محمداً قد جعل من هذه الرؤية (العامة) رؤية خاصة به (٩٢) . فضلاً عن ذلك فإنه إذا كان محمد قد دعا منذ البداية إلى الزكاة بمعنى «الضريبة» ، وإذا كان -كما يريد جريمه- قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعداً العنصر الأساسي لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جداً لأن التراث المحمدي كله لا يعرف شيئاً من مثل هذا النظام (الضريبي) في بداية الإسلام ، وليس هذا فحسب ، بل إن مما يثير الدهشة أيضاً أن المحمديين قد قللوا عن قصد عمر هذه «الدعامة» من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه «الضريبة» أولاً بعد الهجرة .

وعلاوة على ذلك فإنه لا يوجد في الوحي المكّي وصف لهذا الشكل من أشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبي عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضاً أقل القليل من الإشارة أو التلميح لهذا النظام (الضريبي) . وقد وضع التراث المحمدي توقيت نظام «الضرائب» الحكومي بوضوح في وقت متأخر (أي بعد الهجرة) .

وأخيراً كان يجب أن يكون مثل هذا الإجراء ، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجاً من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا أيضاً لم يكن هو الحال . صحيح أن التناقض بين الغنى والفقير كان قائماً ، ولكنه لم يكن (في مكة) أسوأ مما كان قائماً في أي مدينة أخرى . ويضاف إلى ذلك أن محمداً كان يدعو في مكة باستمرار إلى الصبر والتحمل السلبي وأنه لم يتحول من الدفاع إلى الهجوم إلا بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان



هذا إذن في الوقت الذي اختفت فيه دعوته الاشتراكية - حسب رأي جريمه - وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكذا يتضح أن الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكي - التي قال بها جريمه - لا تتفق بأي شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة عليها بأي حجة تاريخية أو غيرها من حجج أخرى . ولكن فيما عدا ذلك فإن سيرة محمد لجريمه لا تختلف بأي حال عن المؤلفات السابقة ، غير أنه قد تخللتها في أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذي يعد آفة من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية .

ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة للعمل الذي بذل حتى الآن (في مجال كتابة السيرة) لكان يمكن أن يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

أما القسم الثاني من سيرة محمد لجريمه ، والذي ظهر بعد القسم الأول بثلاث سنوات ، فإنه يشتمل على «مقدمة في القرآن» تناول فيها باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمني . ولكن المضمون الأساسي لهذا المجلد يشكل «نسق علم العقيدة القرآني» والذي سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن «تعاليم محمد» (ص ٢٠٠) (٩٣) .

وهناك قصور في هذا الكتاب يتمثل في أن جريمه لم ينتفع من الأحاديث الصحيحة التي تقدم تصوراً أكثر حيوية وأكثر تنوعاً لروح الإسلام مما يقدمه القرآن الذي ينحو في معظمه نحو التجريد (٩٤) .

وإذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين عن سيرة محمد ، وهي فكرة قام سنوك هورجرونيه بتفنيدها ببراعة - فإن حديث جريمه عن محمد في كتابه «تاريخ العالم في صور مميزة» يأتي بفرضية جديدة يحاول إثباتها وهي الأصل العربي الجنوبي لأفكار محمد الدينية . ومن أجل

هذا الغرض خصص النصف الأول كله من دراسته لبحث التاريخ الأقدم لبلاد العرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسي والحضاري لبلاد العرب القديمة الشمالية والجنوبية .

والآن فإن الاقتباس من جنوب العرب لا يعد فقط أمراً محتملاً ، بل هو أمر راجح إلى أقصى حد . أجل ، فهناك في عبادة الإسلام على كل حال أمور كثيرة مما كان في بلاد العرب القديمة بقدر أكثر مما كان يفترضه المرء في العادة . ولكن الأمر الذي يعد بعيد الاحتمال جداً هو أن تكون التأثيرات العربية الجنوبية وحدها هي كل شيء . فالأحرى أنه لا يجوز التغاضي عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف إلى ذلك أن مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد أمراً غير عادي إلى حد كبير (٩٥) .

ومن الطبيعي أن تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة (إلى المدينة) ، ومن هذه اللحظة فصاعداً فقد جريمه أيضاً كل اهتمام بالتطور الديني لمحمد . فكل شيء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتهن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الرأي عن محمد رأياً عاماً شائعاً في السابق ولا يزال الآن أيضاً قوى الانتشار . ولكن محمداً لم يكن يجعل هناك أبداً فارقاً بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الإنسان كله . والارتباط السياسي هو النتيجة البديهية تماماً للتحويل إلى الإسلام ، والرعاية السياسية لأتباعه تعد جانباً أساسياً لنبوته . وأيضاً فإن ضم الكعبة إلى دائرة نظرته أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطوراً دينياً داخلياً .

وفي مقال خاص نشر في «مجلة الشرق الشهرية النمساوية» عرض جريمه مرة أخرى «أصول دين محمد» باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك

دين قائم في الجنوب العربي هو «دين الرحمانان» بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفاً دقيقاً وأن يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه أن الإسلام «لم يكن شيئاً ولد في رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون أي تأثير من العالم المحيط به ، بل كان في بداياته الأولى كما كان في استمرار تطوره - طالما كان هذا التطور يحدث على أرض مكة - متشابكاً تشابكاً وثيقاً مع (دين الرحمانان) الجنوبي العربي» .  
وبصرف النظر عما إذا كان «دين الرحمانان» هذا لم يثبت إطلاقاً أنه كان ديناً خاصاً فإنه يبدو أن جريمه هنا أيضاً لم يقدر قيمة التأثيرات اليهودية والمسيحية إلا في أقل القليل . والأمر كله لا يعدو أن يكون فرضية طريفة ! (٩٦)

١٣ - بول Buhl :

في حين يوجه جريمه أكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فإن بول (٩٧) - الذي لم يترجم - للأسف - كتابه الممتاز عن سيرة محمد إلى الألمانية - يوجه اهتمامه إلى موضوع التطور الديني لمحمد . فقد جمع بعناية فائقة - وأنا أقرر هنا بكلمات ك. ه. بيكر نظراً لأن الكتاب الأصلي لم يكن في متناول يدي - جمع بين المراجع العربية والأوربية ، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة في الأسانيد جديرة بالتقدير . وبطبيعة الحال يقتفي في الغالب أثر الثقافات المعدودين ، ولكن نادراً ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه إزاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التي عرض علينا بعضها فنكلر Winckler (٩٨) بصفة خاصة في ثوب مغر . وقد خصص كذلك قسماً كبيراً من الكتاب للبيئة التي انحدر منها محمد ، أي للعالم العربي الوثني . وفي حياة

محمد ذاتها أجرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفي العرض الرائع المختصر لقضية المصادر الذي أورده بول في نهاية الكتاب يجد المرء تعليلاً للأسس التي راعاها بول في كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الديني ذاته فقد انتفع بول كثيراً بمقالة سنوك هورجرونيه « الإسلام De Islam » . وفي هذا الصدد نجد بول منصفاً تماماً لشخصية النبي . وهذا أمر يختلف تماماً عن (موقف) جريمه الذي ظل النبي غريباً عنه داخلياً .

وفي مقال لمجلة عالم الإسلام «The Moslem World» يقدم بول - على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد - عرضاً مختصراً عن «أخلاق محمد بوصفه نبياً» يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفي الكتاب التذكاري للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيراً «بعض إسهامات لنقد تاريخ محمد» وذلك في قسمين : ١ - مقدمات معركة بدر . ٢ - الهجرة إلى الحبشة .

١٤ - مرجليوث (٩٩) Margoliouth :

أما مرجليوث فإنه في كتابه «محمد ونهضة الإسلام» قد انتفع بسلسلة من المصادر الجديدة التي لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين . وفي ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضاً - كما يقول بيكر - . فالصورة نجدها حية جداً في كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ في حالات كثيرة جداً الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما أن المشكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسي لعودة محمد إلى طقوس العبادة المتعلقة بالكعبة ونزعه الإبراهيمية ، تراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، في حين أنه يتتبع بشغف ظاهرة الوحي لدى

محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحي الحديث وبالمذهب المورموني «Mor-  
monism» (١٠٠) .

ويرى مرجليوث في محمد دجالاً ماكراً معدوم الضمير وسياسياً يخدع  
الآخرين بشعوذاته . وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم أخلاق  
محمد وتطوره . فالكتاب إذن له مزايا كبيرة ، ولكن أخطائه كبيرة أيضاً . والشيء  
المتماز يتمثل في تلك الصور العديدة (التي اشتمل عليها الكتاب) (١٠١) .  
وقد كتب مرجليوث أيضاً مقالتين عن «محمد» أحدهما في دائرة المعارف  
البريطانية والأخرى في دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقاليتين  
أيضاً على بيانات قيمة بالمراجع .

#### ١٥ - جولد تسيهر Goldziher ومرحلة جديدة :

بدأت هناك مرحلة جديدة في مجال البحث في حياة محمد عن طريق بحوث  
جولد تسيهر حول «تطور الحديث» . وقد أثبت جولد تسيهر عن طريق عدد وفير  
من الأمثلة القاطعة أن «الحديث» ليس تاريخاً وإنما هورواسب تعكس ميول شتى  
التيارات والتيارات المضادة في حياة الإسلام (١٠٢) .

وأول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان ليوني  
كيتاني (١٠٣) Caetani . صحيح أن إنتاجه الضخم (انظر ص ٣٦ (١٠٤) وما  
بعدها) لا يتضمن سيرة حياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل  
تمهيدي لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة (العلمية) . وعلى أساس من هذا  
العمل التمهيدي تناول كيتاني العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبي بنقد  
أصيل وحاد ، وإن كان في بعض الأحيان أيضاً يذهب في النقد إلى حد بعيد  
نسبياً . (قارن في ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين

الأول والثاني في «مجلة فيينا لمعارف الشرق» جزء ٢١ ص ٢٩٧-٣١٢) .  
ولكن كيتاني كان - حسب قول نولدكه - منصفاً تماماً لنفسية محمد  
الفريدة . ويبين لنا كيتاني بصورة ممتازة - طالما كان ذلك ممكناً - كيف تحول  
الداعية المتحمس لله تحولاً سريعاً ، بمجرد أن استقرت أقدامه في المدينة ، إلى  
سيد دنيوي وسياسي عبقري دون أن يحدث في باطنه تصدع واع وحقيقي .  
والأمر الهام أن محمداً أيضاً في شتى تنظيماته وأعماله التي تجرح شعورنا الأخلاقي  
جرحاً بالغاً لم يفقد الوعي بأنه أداة إلهه ، هذا الإله الذي هو نفسه لديه نقاط  
ضعف إنساني إلى حد ما (١٠٥) .

١٦ - لا مانس Lammens :

يتابع لا مانس (١٠٦) كلا من جولد تسيهر وكيتاني . ونحن ندين بالفضل  
للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التي تمتاز جميعها  
بحدة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها في تشككها إزاء المصادر غالباً ما تذهب  
في ذلك إلى حد بعيد أكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر (١٠٧) في مقالات مطولة نتائج بحوث  
لامانس . وكان نولدكه - في نقده المشار إليه لكتاب كيتاني - قد عارض التشكك  
المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه في مقالة خاصة بعنوان  
«الحديث وصلته بحياة محمد» (مجلة الإسلام ، ٥ ، ١٩١٤ ، ص ١٦٠-١٧٠) -  
تناول أقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ العمق . ويذهب نولدكه أيضاً إلى  
القول بأن التطور الداخلي لمحمد ، والذي أدى إلى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من  
الأمر الغامضة حقاً ، كما أننا لا نعرف إلا القليل عن فترة نبوة محمد المكية .  
ولكن الأحاديث تقدم لنا أيضاً بعض الأمور اليقينية عن هذه الفترة . و بانتقال

محمد إلى يثرب نظماً أرضاً تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فإنني إذا أردت أن أخلص وجهة نظري فإنني يجب أن أعبر تعبيراً حاسماً ضد الرأي القائل بأن السيرة (أي الوصف العربي لحياة محمد) لم تكن إلا مجرد ذيل أو ملحق لتفسير القرآن . إنها كثيراً ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة في جملتها » .

وفي المجلد نفسه من مجلة «الإسلام» (ص ٢٠٥-٢١٢) يقدم نولدكه حديثاً مفصلاً ونقداً لكتاب لامانس الرئيسي «مهد الإسلام» الذي ستحدث عنه بعد قليل بشيء من التفصيل .

وفي المجلد الخامس عشر من مجلة «أرشيف لعلم الأديان» قدم بيكر في تقريره عن المراجع حول الإسلام بياناً مختصراً بمضمون البحوث المختلفة التي قام بها لامانس . وفي مقال خاص بعنوان «أمور مبدئية لدراسة لامانس للسيرة» في المجلد الرابع من مجلة «الإسلام» ناقش بيكر مرة أخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد .

وقد أبدى شفالي (١٠٨) Schwally في مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه «تاريخ القرآن» (المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثاني ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦-١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها) - أبدى رأيه في أهم مواقف لامانس .

وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن أعمال لامانس الرئيسية .

فدراسة لامانس التي عنوانها «مكة بوصفها مركزاً تجارياً حوالي عام ٦٠٠ ميلادية» يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبي .

أما مقالته «القرآن والحديث . كيف تمت كتابة سيرة محمد» فإنها تقدم أفضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة . وفي هذه المقالة يرى لامانس أن سيرة حياة محمد لا تقوم - كما يظن المرء غالباً - على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوي ، بل إن المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئاً آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للإشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد إذن لحياة محمد - وليس لتعاليمه - هو القرآن . وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جداً من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة .

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطاً وثيقاً عمل آخر يتمثل في بحثه عن «عصر محمد والترتيب الزمني للسيرة» . وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمني التي تبدو كأنها بيانات دقيقة والتي تشتمل عليها الأحاديث (النبوية) الإسلامية عن حياة محمد . ويجب أن ينظر إلى هذه البيانات على أنها محاولة أجريت بوسائل غير كافية تماماً من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمني وقاموا بإدماج الأحاديث الشفوية - التي تفتقد أصلاً التحديد الزمني الدقيق - في قالب تاريخي . ولا يريد لامانس أن ينكر احتمال أن تكون هناك على الأقل بعض بيانات جديرة بالتصديق في هذا الترتيب الزمني الذي هو فيما عدا ذلك مصنوع تماماً (١٠٩) .

والكشف عنها (أي عن البيانات الصحيحة) هو مهمة بحث نقدي خاص . ويريد لامانس أن يخفف مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقداً من الزمان على الأقل - على عكس ما تقول به الأحاديث (١١٠) .

ويهتم لامانس أيضاً بالسؤال القديم : «هل كان محمد مخلصاً؟» . ويعتقد لامانس - بناء على تحليل نفسي دقيق - أنه يتحتم الإجابة بالنفي على هذا



السؤال (١١١) .

ويعبر لامانس في بحثه «حكومة الثلاثة : أبي بكر وعمر وأبي عبيدة» عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبي ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكي يمنعوا سقوط الدولة ، وأنهم إذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضاً ، بل كانوا ساسة حصفاء (١١٢) .

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع «فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة» (مجلة الإسلام ، ٤، ١٩١٣، ص ٢٦٣-٢٦٩) .

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس في مجال البحث النقدي لحياة محمد ووفاقه في الحكم على التصوير الإسلامي لسيرة النبي ؛ فهذه السيرة ليست مصدراً تاريخياً مستقلاً ، بل هي مأخوذة في وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التي أتت نتيجة للميول العقيدية والفقهية ، ونسقت تنسيقاً بيوجرافياً ، فالسيرة إذن إنتاج متأخر .

ولكن بيكر يؤكد - معديلاً من حكم لامانس - أن هناك في السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخباراً عديدة لم يثبت أنها مغرضة ، وتسمح يقيناً بإعادة بناء صورة تاريخية . ويتهم بيكر لامانس أنه بصفة خاصة لم يكن في نقده منطقياً مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد علي دون فحص يأخذها على أنها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط في عشوائية تامة .

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس في كتابه الرئيسي «مهد الإسلام» ببيان الصورة التاريخية لنشأة الإسلام من المصادر وبتفصيل القول في مجال هذه الصورة كله . واقتناعاً منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس

المجلدين الأولين - اللذين لم يظهر منها حتى الآن إلا المجلد الأول فقط -  
لوصف أماكن مولد الإسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها . وعلى  
أساس من الاطلاع الواسع الذي يحسد عليه في كل أنواع المراجع العربية  
القديمة ، التي سجل معلوماتها في آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف  
الأرض والناس في الحجاز في عصر ظهور النبي وصفاً حياً إلى أقصى حد .  
ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب - حيث يصف أولهما  
الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما أوضاع حياة القبائل  
البدوية (أما السكان القاطنون المستقرون فإنه يصفهم في المجلد الثاني) - يضع  
مناقشة جديرة جداً بالتقدير للدعوى الجديدة التي تذهب إلى القول بأن الطقس  
قد تغير في بلاد العرب تغيراً أساسياً في زمن تاريخي . فالتحول المستمر للبلاد إلى  
صحراء غير مأهولة بالسكان كان الدافع الحقيقي للفيضانات البشرية الكبيرة من  
جانب سكان «مجلس الشعوب» العربية إلى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة  
خاصة أيضاً كان الدافع الحقيقي للفتوحات الإسلامية . (قارن ليوني كيتاني  
ص ٣٧) (١١٣) .

ويعد لامانس خصماً لدوداً لهذه النظرية ، ويواجهها بصفة خاصة بحقيقة  
مؤداها أن تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على أنه كان هناك مستوى عالٍ للحضارة  
البلاد في القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شيء آخر غير  
الإفقار العام والفقير الذي يمكن أن يدفع إلى توسع عنيف .  
ويمكن القول على وجه الإجمال بأن لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة  
(علمية) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، تقدم لكل باحث - مع استخدام النقد  
الضروري - إشارات ثرية .

أما أحدث تصوير انجليزي لحياة محمد من جانب كل من كانون سل

Canon Sell ودرايكوت G.M. Draycott فلم يكن في متناول يدي . واستناداً إلى ما يقوله ت . ف . أرنولد (١١٤) Arnold فإن درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعرف لادين النبي نفسه ولا المؤلفات الأساسية عن الإسلام . (قارن : مجلة تاريخ الأديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣) .

### ( هـ ) كتابات شعبية عن حياة محمد

١ - ريكندورف Reckendorf :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب «محمد وأصحابه» من تأليف ريكندورف (١١٥) ، وكتاب «حضارة العرب من تأليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما في مجموعة «العلم والثقافة» .

وريكندورف وإن كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد إلا أنه قد نجح بصورة رائعة في توضيح الأسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للإسلام في بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف في فصول أربعة (الموضوعات التالية) :

١ - قوة تأثير أعمال محمد ونشاطاته .

٢ - حروب محمد .

٣ - أصحاب محمد .

٤ - رئيس الدولة والرعية .

وفي فصل خامس يقدم لنا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر أهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات

على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطي أحياناً - رغم كل النقد - ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التي يبرزها سنوك هورجرونيه بصفة خاصة في نقده المفصل المنشور في جريدة الأدب الألماني ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩-١٣١١) بعض الأخطاء التي تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

٢ - هيل Hell :

ويقدم هيل أيضاً في الفصل الثاني من كتابه «حضارة العرب» صورة حية لحياة النبي وتعاليمه (١١٦) .

٣ - كامبفماير Kampfmeier :

في أربع مقالات - تدل على خبرة علمية - كتبها كامبفماير (١١٧) لمجلة «العالم المسيحي» يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ، ويصف أحوال بلاد العرب قبل الإسلام ، ويعرض تعاليم محمد (عقيدة البعث والحساب ووحدة الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحي وتعاليم الأخلاق القرآنية) . ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الإسلام بعد ذلك .

٤ - ريم Rehm وفورترس Würz :

أما تصوير ريم لمحمد ولعالم الإسلام في سلسلة مكتبة ريكلام العلمية فقد جاء شعبياً أكثر من اللازم ، ولم يكن منصفاً للحضارة العقلية للإسلام (١١٨) . وفي «مجلة التبشير الإنجيلي» (مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ص ٢٧٢ وما بعدها) ألقى ف. فورترس نظرة سريعة على «محمد وأعماله» .

٥ - ماير Meyer :

وفي النهاية نشير أخيراً إلى تلك المحاولة الهامة التي قام بها إدوارد ماير (١١٩) في استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث (١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين - طبقاً لما ورد بشأنهما في الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ - يربطهما بالرؤى الروحية التي شهد بها النبي نفسه ، (مرة) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، (ومرة أخرى) عند «شجرة سدرة المنتهى» . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى - متفقاً في ذلك مع اشبرنجر بمكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك (١٢١) . ويؤيد ماير الفهم القائل بأن كلمة «اقرأ» في بداية السورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقي وأنها تنسحب على الوحي .

وبصرف النظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية «قرأ» ترجمة خاطئة بمعنى Lesen (أي بالمعنى المعهود الذي تدل عليه الكلمة وهو القراءة) ، في حين أن المعنى المقصود هو يتلو (١٢٢) «rezitieren» - بصرف النظر عن ذلك فإن مقارنته مفيدة ومثيرة للاهتمام ، وإن كان أيضاً يجاوز الحد في بعض الأحيان . (قارن النقد المفصل الذي كتبه يوهانز بيدرسين Pedersen في مجلة «الإسلام» ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠-١١٥) .

يتبع

## الحواشي

- (١) انظر العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر من ص ٧٣ إلى ١٢١ .
- (٢) يراجع في ذلك كتاب جوستاف بفانموللر G. Pfannmüller «موجز في أدب علوم الإسلام Handbuch der Islamliteratur» - الذي نشر أول مرة في برلين عام ١٩٢٣. وأعيد نشره عام ١٩٧٤ - من ص ١٦٨ إلى ص ١٩٦ .
- (٣) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٣٩ ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨١ .
- (٤) صدر هذا الكتاب في روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الإيجابية .

- (٥) انظر على سبيل المثال الكتاب الذي ألفه John Laffin بعنوان : خطر الإسلام Danger of Islam (١٩٧٩) وتمت ترجمته أيضاً إلى الألمانية عام ١٩٨٠ . وانظر أيضاً ما تضمنه في هذا الصدد الكتاب الذي يحمل عنوان «1985» من تأليف Anthony Burgess والذي صدر في لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

- (٦) صدر كتاب بوديه بالفرنسية في باريس عام ١٦٢٥ و ١٦٣٢ ثم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان في عام ١٧٤١ تحت العنوان التالي :

Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophète Mahomet.

(٧) لا شك أن مثل هذه الكتابات التي تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بوديه تعد أقل خطراً من تلك المؤلفات الأخرى التي لا تكشف صراحة عن مقصدها ، بل تحاول بثتى أساليب التمويه والتزويق العلمي أن تقنع القاريء بما تريد ، ولسنا هنا في حاجة إلى الكشف عن أباطيل بوديه . فالقاريء العادي لا يخفى عليه زيف مزاعمه . فعمله أبعد ما يكون عن الاقتراب من البحوث العلمية النزينة التي تسعى لمعرفة الحقيقة بتجرد وموضوعية . وقد اعترف بفانموللر بأن عمل بوديه لم يكن على وجه اليقين عملاً محايداً ، فهو عمل يدخل في باب الجدل الكنسي السقيم .

(٨) كيف يقال إن بوديه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو في الوقت نفسه قد أفسح في كتابه مكاناً لأكثر المزاعم وقاحة وأكثر الأساطير مدعاة للسخرية ؟ هذان أمران لا يجتمعان ، فإما دقة وموضوعية وإما مزاعم وقحة وأساطير مضحكة . أما هذا الخلط الغريب فإنه يعد استهانة بعقلية القاريء .

(٩) إدوارد بوكوك (١٦٠٤ - ١٦٩١) درس اللاهوت في أكسفورد وتعلم العربية في حلب ، وأصبح أستاذاً للعربية والعبرية في أكسفورد عام ١٦٣٦ . وكتابه الذي يتحدث عنه بفانموللر هنا هو «لمع من تاريخ العرب» (١٦٥٠) : Specimen Historiae Arabum ، وقد اعتمد فيه على كتاب بالعربية لابن العبري . وفي عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب «مختصر تاريخ الدول» لابن العبري . (غريغوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ - ١٢٨٩) الذي كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديماً بالمملكة الفارسية . وقد كتب ابن العبري هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من كتاب له في التاريخ العام بالسريانية في ثلاث مجلدات . (راجع : دائرة

المعارف الإسلامية - مادة : ابن العربي . وراجع أيضاً :

J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa, P. 88f., Leipzig 1955.

(١٠) يجيل بفانمولر هنا إلى ص ١٣٢ حيث يشير هناك إلى أن أول المصادر العربية التي رجع إليها الكتاب الغربيون في الكتابة عن محمد ﷺ كان كتاب ابن العربي المشار إليه وكتاب أبي الفدا الذي نشره جانييه (سيأتي الحديث عنه في هذا البحث أيضاً) ، وأشار بفانمولر إلى أن المصادر العربية الأقدم عهداً من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الأوربيين .

(١١) هو تنجر : مستشرق سويسري ، كان أستاذاً للغات السامية في كل من زيورخ وهايدلبرج . وقد صدر كتابه المشار إليه في زيورخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ . ومن أعماله أيضاً : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(١٢) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها .

(١٣) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعي ، كان في طليعة المهاجمين للإصلاح الديني الذي تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(١٤) نشرت الترجمة الألمانية في هايدلبرج بألمانيا عام ١٦٦٨ تحت عنوان : «العبادات المتباينة في العالم كله» .

(١٥) لقد كان ماراتشي أحد رجال اللاهوت الإيطاليين . أمضى حياته كلها في إعداد دراسات هدفها البرهنة - كما يزعم - على بطلان الإسلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه في «تفنيد القرآن» عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضاً لمحة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربي الكامل للقرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنقض القرآن



فقرة فقرة . وينطلق ماراتشي في دراساته - مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعظم المستشرقين - من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة وبنون عليها كل مزاعمهم . وتمثل هذه الفرضية في أن محمداً ليس نبياً حقيقياً وأنه هو الذي قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشيء نفسه مشركو مكة . وقد وصف «بفانموللر» نفسه موقف ماراتشي (ص ١١٦) بأنه «نفور داخلي إزاء محمد وتعاليمه» فكيف ينتظر منه - وقلبه مليء هكذا بالحق على الإسلام - أن يكون منصفاً للإسلام ونبيه ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن - التي لا بد أنه قد اطلع عليها - والتي تتمثل في الإنصاف المطلق الذي يعلو فوق كل اعتبار : (ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) . - المائدة آية رقم ٨ .

(١٦) همفري بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزي ، له دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتها بتاريخ اليهود . وكتابه عن «حياة محمد» صدر في لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية في استوكهولم عام ١٦٩٨ . ويصف نجيب العقيلي هذا الكتاب بأنه «ترجمة تافهة لا غناء فيها» . ويصف بفانموللر (ص ١١٦) موقف بريدو من محمد ﷺ بنفس الوصف الذي وصف به موقف ماراتشي «النفور الداخلي إزاء محمد وتعاليمه» . وفي موضع آخر يصف موقفها بأنه «حماس حقود» (ص ١١٧) . ومن هنا ينطبق على (بريدو) ما ورد في الهامش السابق .

(١٧) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه في العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٨) أبو الفداء : هو إسماعيل بن علي الأيوبي ، ولد عام ٦٧٢هـ في دمشق ، تولى إمارة حماه وكان له نشاط علمي ملحوظ . وأهم مؤلفاته كتابه «مختصر

تاريخ البشر» الذي اهتم به جانبيه وغيره من المستشرقين . وفي هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول ﷺ . وله أيضاً كتاب «تقويم البلدان» في الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء بأنه كان «أعظم جغرافي في عصره» . وفي ص ١٢٨ التي يحيل إليها بفانموللر يذكر عدداً من المؤلفات الأوروبية التي اهتمت بكتاب أبي الفداء في التاريخ .

(١٩) عندما نشر بولا نفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد (ص) بوصفه رسول العناية الإلهية . وقد اشترك جانبيه في الحملة ضد بولا نفلييه كما هو واضح .

(٢٠) ربما يعطي ما ورد هنا عن جانبيه انطباعاً بأنه كان منصفاً حقاً لمحمد ﷺ . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فقد اعترف بفانموللر في موضع آخر (ص ١١٧) بأن جانبيه قد وصف محمداً في مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شراً وبأنه عدو لدود لله ، ثم أضاف بفانموللر إلى ذلك قوله : من هذا يتبين لنا ماذا يفهم المرء من «حياده» . راجع تعليقنا على موقف جانبيه في العدد الأول ص ٨٤ هامش ١ .

(٢١) يحيل بفانموللر هنا على ص ٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطاً بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير إلى ما فيها من قصور ثم يتحدث عن محتويات «المقدمة التمهيدية» التي كان لها صدى بعيد .

(٢٢) يزعم المستشرقون واللاهوتيون أن محمداً ﷺ لم يعرف التعاليم «الصحيحة» للمسيحية وبني معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو (رودي بارت) عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس عن المسيحية في مكة

في العصر الذي عاش فيه محمد معلومات محدودة وناقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح في معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آراء بدعية منحرفة . ولولا ذلك - كما يزعم بارت - لما كان محمد على علم بأمثال تلك الأراء التي تنكر صلب المسيح وتذهب إلى أن نظرية التثليث لا تعني الأب والابن وروح القدس ، وإنما تعني الله وعيسى ومريم الخ (راجع كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧ وما بعدها) . وهكذا ينكر المستشرقون أن يكون محمد ﷺ قد تلقى معلوماته عن المسيحية من أعلى عن طريق وحي سماوي أراد الله به أن يصحح العقائد التي أفسدتها عقول البشر على مر العصور .

(٢٣) ظهر كتاب ياكوب إيرهارت في مدينة أولم بألمانيا عام ١٧٣١ باللغة اللاتينية بعنوان : «حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين في عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك» .

(٢٤) لم يكن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) - وهو أديب فرنسا الشهير وقطب عصر التنوير الفرنسي - لم يكن يعني محمداً ﷺ في حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير إلى ذلك بفانمولر عقب ذلك مباشرة ، بل كان يعني المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كريبه وتضليل متعمد وعمل لا أخلاقي . وقد عدل فولتير من موقفه بعد ذلك ونعت محمداً ﷺ بكل أوصاف التمجيد والإكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخير هو الذي ذاع وانتشر في الأوساط الثقافية في فرنسا آنذاك كما يشير إلى ذلك بفانمولر أيضاً .

(٢٥) أوليفر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) رجل دولة انجليزي عظيم وقائد جيش شهير ، وضع حداً للحرب الأهلية في إنجلترا آنذاك ، وقاد حروباً ناجحة

ضد هولاندا وأسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية والتجارية . وكان أيضاً من أتباع المتطهرين المتشددين ، وهم البروتستانت الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها بتخليصها من كل أخطاء الكاثوليك .

(٢٦) دينيه ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) أحد أعلام الكتاب في عصر التنوير الفرنسي ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية . ووصفه هنا للنبي ﷺ بأنه «كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل» بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه «مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة» يدل على التخبط والتناقض ، إذ كيف يوصف المشرع الماهر الداعي إلى الفضيلة بأنه عدو للعقل؟ ومن ناحية أخرى فإن من المعلوم أن النبي ﷺ قد أوصى بالنساء خيراً في حديث مشهور . وهذا أمر يحسب للإسلام لا عليه .

(٢٧) يميل بفانموللر هنا إلى ص ٢١٥ حيث أشار هناك إلى ترجمة سافاري للقرآن التي ظهرت في باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت في النفوس انطباعات سيئة عن القرآن ومضمونه وأسلوبه إلخ .

(٢٨) جوتفريد فلهلم لبيتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) فيلسوف ألماني شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وابتكارات في مجالات علمية وفلسفية عديدة . وهو صاحب نظرية الذرات الروحية في الفلسفة وهي نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها يمثل الوجود كله .

(٢٩) ليسنج (جوتهولد إفرايم) : «١٧٢٩ - ١٧٧٨م» ، من أعظم أدباء ألمانيا في القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الشعر الألماني من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجاً يحتذى في النثر الأدبي ، كتب

عدداً من المسرحيات الفكاهية وله أعمال أدبية أخرى مشهورة .  
(٣٠) كاردانوس (١٥٠١ - ١٥٧٦) طبيب إيطالي وعالم في الرياضيات ، كتب  
سيرة حياته بنفسه ، وله جهود في مجال الرياضيات معروفة باسمه .

(٣١) على الرغم من أن ليسنج قد تحدث حديثاً طيباً عن الإسلام بعد هذه  
العبارات إلا أنه في هذه العبارات السابقة يخلط - كما يفعل غيره كثيرون  
أيضاً - بين الإسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة  
للأتراك العثمانيين في ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال  
حينذاك ذات قوة مؤثرة في العالم ، وكانت أوروبا لا تزال تخشى بأسها وتحسب  
لها ألف حساب .

(٣٢) توماس هايد (١٦٣٦ - ١٧٠٣) مستشرق انجليزي ، كان أستاذاً للعربية  
والعبرية في أكسفورد .

(٣٣) أشار بفانموللر في ص ٢١٧ إلى هاتين الترجمتين ، وذكر أن الترجمة الأولى  
قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميجرلين بجانب النص الأصلي على  
ترجمات سابقة في لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام  
١٧٧٣ ، ويرى بفانموللر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٣٤) يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) يعد أعظم شعراء ألمانيا  
على الإطلاق ، كان منصفاً للشرق وللإسلام وبنيه عليه الصلاة والسلام ،  
قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة في الديوان الذي أطلق عليه  
اسم «الديوان الشرقي الغربي» .

(٣٥) نشر هذا الكتاب في بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٦) إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) مؤرخ انجليزي شهير . وقد ظهر كتابه

المشار إليه في عامي ١٧٧٧ / ١٧٧٨ وترجم إلى الألمانية عام ١٩٠٣ .

(٣٧) إذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الديني الحقيقي والدجل فلعله كان في وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل لو تجرد لطلب الحقيقة بعيداً عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .

(٣٨) يوهان جوتفريد فون هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) كاتب ألماني معروف وعالم في اللاهوت . ومن مؤلفاته (أفكار لفلسفة تاريخ الإنسانية) وقد تأثر به جوته في شبابه .

(٣٩) الفكرة الأساسية المسبقة لدى هردر وأمثاله هي أن القرآن من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه وإنتاج عقله . ومن هنا فإذا ورد في القرآن أنه وحي الله اعتبروا ذلك نوعاً من الخداع أو التضليل . وإذا كان هذا هو موقفهم الأساسي الذي يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا إلى حقيقة الإسلام أبداً إلا إذا أزالوا عن أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة في الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذي يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٤٠) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أي أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها في باب التخمينات والظنون . وما قام به النبي ﷺ في المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءاً لا يتجزأ من الإسلام الذي جاء نظاماً للحياة بكل جوانبها . وإذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليهم أن يعيدوا النظر في أفهامهم وتصوراتهم بدلاً من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

(٤١) جوزيف توسن رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسي ، كان أميناً لقسم المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس ، وأستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهود علمية في مجالات الأدب العربي والتاريخ تأليفاً وتحقيقاً وترجمة .

(٤٢) بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) مستشرق نمساوي شهير ، له دراسات عديدة في تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الإسلام . أصدر أول مجلة استشرافية متخصصة في أوروبا عام ١٨٠٩ هي مجلة (ينابيع الشرق) . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية في عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات .

(٤٣) هو حسين بن محمد الديار بكري (توفي حوالي ١٥٧٤م) تولى القضاء في مكة ، وكان شافعي المذهب . ومن مصنفاته (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) تناول فيه سيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء إلى السلطان مراد العثماني .

(٤٤) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي (توفي عام ٩٥٦هـ) . فقيه حنفي من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر في القسطنطينية وتوفي بها . وأشهر كتبه (ملتقى الأبحر) ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط (راجع الأعلام للزركلي) .

(٤٥) المعروف أن محمداً ﷺ قد تزوج خديجة - التي كانت تكبره بسنوات - وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وكان قد سبق لها أن تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة إلى أن ماتت بعد أن أمضى معها خمسة وعشرين عاماً . وبعد ذلك - أي وهو في العقد السادس من عمره - تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته ثم تزوج باقي نسائه لأسباب إنسانية

نبيلة أو أهداف تشريعية ، فأين هنا ضلال شهوانيته المزعوم؟ . أما الثأر لشرفه المهان وحدة الطبع إلخ فهذا لم يعرف عنه إطلاقاً . فقد كان (رحمة للعالمين) تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأمرين ، وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وفاقا على ما اقترفوه في حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفواً مطلقاً وقال قولته الشهيرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . (انظر كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧) .

(٤٦) توماس كارلايل (أو كارليل) - ١٧٩٥ - ١٨٨١ . مؤرخ انجليزي وأحد فلاسفة الحضارة . وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبي ﷺ في كتاب (الأبطال) إلى اللغة العربية .

(٤٧) لقد تحدث كارلايل حديثاً إيجابياً تماماً عن محمد ﷺ ، ولكنه عاد وخيب الآمال برأيه في القرآن وهذا الرأي ينبني - في نظرنا - على أمرين هما : أولاً : الموقف الأساسي الغربي الذي يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل - كما هو واضح - لا يشذ عن هذا الموقف . ثانياً : الترجمات السيئة للقرآن والتي تعطي مثل هذا الانطباع الذي تحدث عنه كارلايل . ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول إنه قد تعمد الإساءة للقرآن . ولكن الأمر الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان هو أن محمداً ﷺ كان متخلقاً بأخلاق القرآن كما قالت عنه عائشة رضي الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبله ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل . إلخ أن يخرج لنا هذه الشخصية العظيمة التي تحدث عنها كارلايل نفسه بكل إكبار وتعظيم . أليس في ذلك ما يدعو الغربيين إلى إعادة النظر في تلك الأحكام الجائرة على أقدم مقدسات الإسلام وهو القرآن؟



(٤٨) جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة» إلى الألمانية ، ثم توفّر على دراسة التاريخ الإسلامي . وأهم مؤلفاته - فضلاً عن كتابه عن حياة محمد (١٨٤٣) - مقدمة تاريخية نقدية في القرآن (١٨٤٤) وتاريخ الخلفاء - في ثلاثة مجلدات (١٨٤٦ - ١٨٥١) وتاريخ الخلفاء العباسيين في مصر (١٨٦٠ - ١٨٦٢) . راجع : (Fueck, P. 175) .

(٤٩) انظر ما سبق ذكره في ذلك عند الحديث عن جانيه فذلك ما يعنيه بفانموللر هنا في إحالته إلى ص ١٧١ .

(٥٠) أشار بفانموللر في ص ٢٢٧ إلى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي من أكثر الكتب استخداماً لدى المستشرقين لسهولة استعماله .

(٥١) في ص ٢١٤ تحدث بفانموللر عن ترجمة ماراتشي للقرآن وجهوده في هذا الصدد وفي ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

(٥٢) في ص ١٢٨ أشار بفانموللر إلى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ أبي الفداء ومنهم جانيه وأدلر وفرجيه وموري .

(٥٣) فرجيه (١٨٠٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسي ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

(٥٤) ما يشير إليه بفانموللر في ص ١٧٥ سبق الحديث عنه هنا في هذا البحث عند الحديث عن رينو .

(٥٥) في ص ١٠١ يتحدث بفانموللر عن جايغر وما يزعمه من التأثيرات اليهودية في الإسلام وفي القرآن على وجه الخصوص .

(٥٦) في ص ١٠٩ يتحدث بفانمولر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير إلى أن جيروك قد بحث هذه المسألة وانتهى إلى أن محمداً قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبي الذي كان سائداً في بلاد العرب .

(٥٧) هو نور الدين بن برهان الدين علي بن إبراهيم القاهري الشافعي (٩٧٥هـ - ١٠٤٤هـ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) وتدعى عادة السيرة الحلبية .

(٥٨) هينر إفالدي (١٨٠٣ - ١٨٧٥) مستشرق ألماني ، كان عالماً في اللاهوت ومتخصصاً في العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

(٥٩) يحيل بفانمولر هنا إلى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن محتويات هذا الكتاب .

(٦٠) كوسان دي برسيفال (١٧٥٩ - ١٨٣٥) مستشرق فرنسي وكان أستاذاً للغة العربية في معهد فرنسا الذي تخرج فيه .

(٦١) واشنطن إيرفينج مستشرق أمريكي وقد صدر كتابه (حياة محمد) في نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم إلى الألمانية عام ١٨٥١ .

(٦٢) إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسي . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) الذي ترجمه عادل زعير إلى العربية . وكتابه الذي يعتمد عليه بفانمولر هنا هو : دراسات في تاريخ الأديان - باريس ١٨٥٧ .

(٦٣) نشر بحث إرنست ماير عن : (محمد : حياته وتعاليمه) في مجلة اللاهوت العلمي في فيينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ إلى ٤٨٨ .

(٦٤) السير ولیم مویر (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندي . صدر كتابه عن (حياة محمد) في أربعة أجزاء في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

(٦٥) ألويس اشبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣) مستشرق نمساوي الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذاً للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا وعمل أيضاً في الهند ، ويقول المستشرق الألماني المعاصر رودي بارت عن كتاب اشبرنجر (حياة محمد) : «إنه كتاب جاء مخيباً للآمال في أكثر من ناحية وإنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمي» (راجع : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ص ٢٣) .

(٦٦) على أي أساس ينبي هذا الادعاء العريض بأن الأوربيين وحدهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الإسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد إلا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوربيين !

(٦٧) هكذا ورد التعبير في الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع من سبب مادي بحت .

(٦٨) الغرض إذن من باديء الأمر هو البحث عن مساويء ، وحيث أنه سيعيبه البحث عنها دون جدوى فإنه يلجأ إلى تخيل مساويء من كلمات المدح . فهل هذا منطق ؟ وهل هذا منهج علمي مقبول ؟

(٦٩) راجع تعليقنا على مثل هذه المزاعم في ص ٩٠ من العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة .

(٧٠) هكذا يحلو لكثير من المستشرقين تسمية الهجرة إلى المدينة هروباً . ولو كان الأمر أمر هروب لما كان هناك مبرر لأن يظل محمد في مكة حوالي ثلاثة عشر عاماً منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقسى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة

بسنوات ، وبخاصة بعد موت خديجة وعمه أبي طالب الذي كان يحميه من غدر المشركين . فالأمر لم يكن إذن يتعلق بإرادة محمد ﷺ في تحديد الموعد الذي يترك فيه أحب بلاد الله إلى نفسه مهاجراً إلى المدينة أو غيرها من بلاد الله ، ولكنها إرادة الله ، ولم يكن له إلا أن يمثل لأمر الله .

(٧١) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني معروف ، كان أستاذاً للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الإسلامية . وقد صدر كتابه «حياة محمد» في هانوفر بألمانيا عام ١٨٦٣ .

(٧٢) لودولف كريبل (١٨٢٥ - ١٩٠١) مستشرق ألماني . ساعد في نشر الجزأين الأولين من كتاب نفح الطيب للمقري . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخاري . أما كتابه عن «حياة محمد» فقد صدر في لبيتزج بألمانيا عام ١٨٨٤ .

(٧٣) يشير بفانموللر في ص ٢٦١ إلى هذه البحوث التي نشرها كريبل ، وأهمها بحث عن «عقيدة القضاء والقدر في القرآن وصلتها بعقائد الإسلام الأخرى» وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة في الإسلام .

(٧٤) أوجست موللر (١٨٤٨ - ١٨٩٢) مستشرق ألماني . كانت رسالته للدكتوراه عن امريء القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضاً اسم امريء القيس بن الطحان كان أستاذاً للعربية في جامعة فيينا ، له دراسات في الأدب العربي والفلسفة واللغة وله جهود في نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابه عن «الإسلام في الشرق والغرب» في برلين عام ١٨٨٥ . (راجع المستشرقون للعقيقي ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) .

(٧٥) يحاول أوجست موللر هنا تطبيق مفاهيم المسيحيين وتصوراتهم حول الطبيعة الإلهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الإسلام . وهذا أمر ليس له ما يبرره على الإطلاق . فالدين من حيث هو دين ليس هو -يقيناً- ذلك المفهوم الأوربي المسيحي . وإذا كانت الأفهام المسيحية قد حولت المسيحية إلى هذه الصورة التي نعرفها والتي استخلص منها موللر مفاهيمه فإن الإسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح .

(٧٦) هوبرت جريمه (١٨٦٤-١٩٤٢) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للغات الشرقية في مونستر Münster بألمانيا . ومن مؤلفاته : «محمد» في جزأين . وله دراسات حول اسم محمد ، وأصول ديانة محمد ، والأهمية التاريخية العالمية لبلاد العرب في عصر محمد ، والإسلام واليهودية وغيرها .

(٧٧) إذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فإن علماء المسلمين قد توصلوا إلى ذلك منذ قرون ، وفي مقدمتهم أصحاب الكتب الستة التي أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن البعيد على حجيتها والاعتداد بها .

(٧٨) هذا كلام غير صحيح . فهناك أحاديث كثيرة من الفترة المكية . وقد عالجت مسائل العقيدة والأخلاق والحض على الصدقة وتناولت فريضة الصلاة وقصة الإسراء والمعراج وتحريم الخمر والزنا والربا وغير ذلك من موضوعات .

(٧٩) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية ، وهم في ذلك وجهات نظر متعددة . والأمر الذي عليه المسلمون هو أن هذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهاد البشري . والنبي ﷺ لم يترك الأمر في

ذلك للأهواء والأغراض ، بل حسمه بتوجيه إلهي تم بناء عليه ترتيب الآيات والسور على النحو المعروف في المصحف .

(٨٠) لسنا هنا في مقام الدفاع عن محمد ﷺ ، فهو ليس في حاجة إلى دفاع . وهذا السبب لا يصيب إلا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن «شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» ، وهو القائل : بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مراراً إلى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب إلى ذلك العلمانية الغربية التي يراد تقويم الإسلام من خلالها .

(٨١) لن نناقش هذه الدعوى المتهافئة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تماماً ، فضلاً عن أنها دعوى لا يوافقها عليها معظم المستشرقين ، ولعل جريمه وحده قد انفرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنقضها وتفنيدها كما يتضح ذلك في الصفحات التالية وإن كنا لا نوافق على الأسلوب الذي اتبعه هورجرونيه في تفصيل رده المشتمل على الكثير من المزاعم الباطلة .

(٨٢) يحاول سنوك هورجرونيه هنا وفيما يلي من تفاصيل بيان أن الإسلام دين مأخوذ أساساً من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظراً لاعتمادها على مصادر مشكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاهياً عاماً لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الإسلام بمظهر الدين البشري الملقق من تلك المعلومات التي عرفها محمد عن طريق لقاءاته مع أتباع هذين الدينين . ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات

الوحي الإلهي الذي أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا ؟ إنه إذا كان هذا المبدأ مسلماً به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الإسلام ، وإذا لم يكن - في عرفهم - مبدأ مسلماً به فلا مجال للديانات جميعاً . (راجع في مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧-٧٣) .

(٨٣) لم يكن ذلك كله اجتهاداً من محمد ﷺ ، بل كان وحياً تلقاه من ربه عز وجل . وفي هذا الوحي تأكيد على وحدة الأصل البشري وإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الناس شعوباً وقبائل لكي يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أتقاهم ، كما أشار الوحي إلى أنه ليست هناك أمة إلا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل إلى كل أمة رسولاً بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه القضية بجلاء . ثم كانت رسالة محمد ﷺ رسالة عامة للناس جميعاً وليس للعرب فقط - كما يزعم هورجرونيه - . وفي أول إعلان جهري بالدعوة أعلن محمد ﷺ أنه أرسل إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة . وجاء ذلك في الوحي المكي أيضاً في قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) - سبأ ٢٨ - . وفي قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) - الأنبياء ١٠٧ - .

(٨٤) لم يكن محمد ﷺ في حاجة إلى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذي أنزل التوراة والإنجيل هو نفسه الذي أخبر محمداً عن طريق الوحي بما طرأ على هذين الدينين من تحريف وتبديل ، وبين له طبيعة هذا التحريف .

(٨٥) ما يقوله هورجرونيه في كل تفصيلاته حول موضوع علاقة محمد ﷺ باليهودية والمسيحية مبني على افتراض أن الإسلام دين بشري تفتق عنه ذهن محمد ﷺ . ومن هنا نجد هذا الحرص الشديد على تفسير كل شيء من هذا المنطلق وبناء على هذا الفرض الذي يعده المستشرقون حجة مسلمة . فالأمر إذن يدور حول رفض مسبق للإسلام بوصفه ديناً سماوياً . وهذا الرفض ليس له من علاج إلا دراسة الإسلام دراسة نزيهة محايدة دون أن تكون هناك أوهام وتصورات أو أحكام سابقة .

(٨٦) لم يكن ذلك معرفة توصل إليها محمد ، بل كان وحياً قرآنياً جاء في قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . آل عمران ٦٧ - .

(٨٧) لقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن في تسعة وستين موضعاً ، منها ثنتان وثلاثون مرة في آيات مكية وسبع وثلاثون مرة في آيات مدنية . وقد جاء الأمر باتباع ملة إبراهيم أولاً في آية مكية في قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » - النحل ١٢٣ - ، وتكرر هذا المعنى في أكثر من آية مدنية ، مثل قوله تعالى : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » - الحج ٧٨ - ، وقوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » - الممتحنة ٤ - . أما بناء الكعبة فقد تم على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، كما ورد ذلك في قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » - البقرة ١٢٧ - .

ويريد هورجرونيه كعادة غالبية المستشرقين أن يصور علاقة محمد بإبراهيم عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور في عقل محمد ﷺ انطلاقاً من زعمه الباطل بأن القرآن ليس وحياً حقيقياً من عند الله .



(٨٨) الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالإيمان باليوم الآخر ينبني على الإيمان بالله ، ولا يتصور إيمان باليوم الآخر دون الإيمان بالله . يقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . . » - البقرة ١٧٧ - . وقد ورد تعبير الإيمان باليوم الآخر مسبقاً بالإيمان بالله في كل المواضع القرآنية التي ذكر فيها اليوم الآخر .

(٨٩) لم تكن هذه أفكاراً تتنازع في عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وإنما كانت حياً من عند الله . أما كون الحديث عن البعث والحساب والجنة والنار الخ قد جاء في البداية في صورة تثير العواطف وتمز القلوب فذلك يرجع إلى أن القلوب كانت فعلاً في حاجة إلى هذه الإثارة العاطفية نظراً لتحجرها وجمودها وانغلاقها . وقد سجل الوحي المكّي ذلك في قوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) - الأعراف ١٧٩ - . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والقارعة والرافجة والصاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الغلف والأذان الصم والأعين العمي ودخل الناس في دين الله أفراداً وجماعات لم يكن القرآن في حاجة إلى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال . ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضاً قائماً في كل العصور للقلوب التي يصيبها الوهن وللعقول التي يعثرها الغرور وللنفوس التي يطرأ عليها النسيان ، فيكون علاجاً ناجعاً مستمراً لأمراض القلوب .

(٩٠) لا يعجب المرء من مثل هذه التحليلات التي لا يكمل معظم المستشرقين عن الجري وراءها وعرضها بشتى الأساليب في طلاء علمي زائف ، فهدفهم الرئيسي وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الإسلامي ، وأني لهم أن يبلغوا هدفهم أو يصيبوا منه شيئاً «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» (الصف ٨) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة في السنة الثانية للهجرة وهي تمثل أحد الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الإسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه لم يكن إلا إقراراً وتأكيداً لذلك ودفاعاً عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانعي الزكاة «والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه» . أما مصارف الزكاة فقد حددها القرآن الكريم في آية مدنية في قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) -التوبة ٦٠- .

(٩٢) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال الإنفاق في وجوه الخير وفي ذلك يقول القرآن الكريم : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» -آل عمران ٩٢- . وقد حث القرآن على البر في العديد من الآيات مؤكداً ما لهذه الفضيلة من أهمية بالغة في حياة المؤمن .

(٩٣) هنا إحالة إلى ص ٢٠٠ من كتاب بفانمولر حيث يعرض بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآني .

(٩٤) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهي - كما يقول الإمام الشاطبي - «راجعة في معناها إلى الكتاب ، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره» ولا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وإنما هي مفسرة له وشارحة

لمعاني أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ١٠ - ١٢) .

(٩٥) الديانات السماوية تختلف في طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها في حضارات وديانات قديمة ، أما الديانات السماوية القائمة على الوحي الإلهي فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع إلى وحدة الأصل الإلهي . والوحي اللاحق يصحح ما طرأ على الوحي السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن - وهو النص الديني الذي لم تنله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم رودى بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن - بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحي الأصلي ولا صلة لها بالوحي الحقيقي ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحملة مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الإسلام ، ولا تزال قائمة لإظهاره بمظهر الدين البشري الملق من ديانات وحضارات سابقة .

(٩٦) الأخرى أن يقال إنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . فإذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت إطلاقاً - كما يقول بفانموللر نفسه - أنه كان ديناً خاصاً له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمي المتمثل في الإسلام ؟

(٩٧) فرانتس بول (١٨٥٠ - ١٩٣٢) مستشرق دانماركي ، كان أستاذاً للعهد القديم وللغات السامية . له دراسات إسلامية عديدة أهمها كتابه عن (حياة محمد) الذي صدر في كوبنهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظراً لأن بفانموللر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ فلم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد إلى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره

عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول إلى الألمانية .

(٩٨) فنكلر (١٨٦٣ - ١٩١٣) مستشرق ألماني .

(٩٩) د. س. مرجليوث (١٨٥٨-١٩٤٠) مستشرق إنجليزي معروف ، كان

أستاذاً للعربية في جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، له دراسات عديدة عن

الإسلام وتاريخه والأدب العربي وأصوله . وقام بترجمة الكثير من النصوص

العربية ، كما قام أيضاً بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن

مؤلفاته : محمد ونهضة الإسلام (١٩٠٥) والإسلام (١٩١١) وانتشار

الإسلام (١٩١٤) وجنوب الجزيرة العربية والإسلام ، وأصول الشعر

العربي (١٩٢٥) . وهذا البحث الأخير هو الذي اعتمد عليه الدكتور طه

حسين في كتابه عن (الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ .

(١٠٠) انظر الهامش الذي سيأتي في نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند

الحديث عن ماير Meyer .

(١٠١) لقد كان بفانمولر محققاً في تعليقه على كلمات مرجليوث المسفه بأنه بذلك

قد سد على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالعالم يجب أن يترفع

عن مثل هذا الإسفاف ويرتفع إلى مستوى المسؤولية العلمية حتى يستطيع

أن يرى الحقيقة كما هي دون زيف .

(١٠٢) إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودي من أصل

مجري ، كان أستاذاً في جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات

الإسلامية في أوروبا . كتب العديد من البحوث عن الإسلام باللغات

الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك في الأحاديث النبوية

واعتبرها في جملتها تعكس تطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في

القرنين الأول والثاني . وقد تلقف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم

وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا في معرض مناقشة هذه الدعوى التي تفتقد الأساس العلمي السليم ، فقد سبق أن ناقشها وفندها وبين تهاافتها عدد من علماء المسلمين . راجع في ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي . انظر أيضاً كتابنا الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليوني كيتاني (١٨٥٩-١٩٢٦) مستشرق إيطالي . له دراسات واسعة في تاريخ الإسلام .

(١٠٤) يشير بفانموللر في ص ٣٦ من كتابه إلى كتاب كيتاني (حوليات الإسلام) في تسع مجلدات ، وكتابه (دراسة لتاريخ الشرق) في أربع مجلدات .

(١٠٥) الإسلام دين ودينا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن يفهموه . ثم ما هي تلك الأعمال التي صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقي لدى الأوربيين جرحاً بالغاً؟ وما هي نقاط الضعف الإنساني التي يريد أن ينسبها كيتاني إلى الله عز وجل؟ هذا كلام غريب لا سند له على الإطلاق من عقائد الإسلام وتشريعاته . فالإسلام جاه ليتمم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيهه الله في الإسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التي لا تحتاج إلى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس (١٨٦٢ - ١٩٣٧) بلجيكي المولد فرنسي الجنسية انضم إلى سلك الرهبنة عام ١٨٧٨ ، كان أستاذ العربية في جامعة القديس يوسف في بيروت التي تخرج فيها وتنقل شرقاً وغرباً ثم استقر في بيروت وتوفي بها . وله دراسات عديدة عن الإسلام وتاريخه وقد أشار نجيب العقيقي إلى عناوين بحوث لامانس في ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم

بالتعصب ضد الإسلام . وهذا أمر ليس غريباً على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الإسلام .

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه في هامش سابق . أما كارل هينريش بيكر Becker (١٨٦٧-١٩٣٣) فهو مستشرق ألماني ، كان أستاذاً في هامبورج وبون ، له دراسات عديدة في التاريخ الإسلامي . وقد أنشأ مجلة «الإسلام» الألمانية Der Islam عام ١٩١٠ .

(١٠٨) فريدريش شفالي (١٨٦٣ - ١٩١٩) مستشرق ألماني نشر كتاب المحاسن والمساويء للبيهقي عام ١٩٠٢ واشترك في نشر الطبقات لابن سعد ، وله دراسات في القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب في ذلك إلى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضاً بعض المستشرقين المعتدلين نسبياً ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من نولدكه وبيكر وشفالي وملاحظات بفانمولر أيضاً .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها - فيما نعلم - أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس لبني عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر في أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حراً حينئذ في أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم بريء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد ﷺ ناصعة البياض في كل جوانبها من بدايتها إلى نهايتها . ولكنه منطقت التعصب الدميم يعمي القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عبثاً يحاول المرء إفهام المستشرقين بأنه لا انفصالية بين الدين والسياسة في الإسلام ، فهناك إصرار على فرض مفهومهم للدين على الإسلام . ونحن

من جانبينا لا نقبل هذا المفهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ في اعتباره إلا الجانب الروحي فقط من الإنسان . والإسلام بتعاليمه جاء ليقوم التوازن بين كل جوانب الإنسان الروحية والعقلية والجسمية . فمتى يدركون ذلك ؟

(١١٣) يشير بفانمولر في ص ٣٧ إلى تبني كيتاني للنظرية القائلة بأن الجفاف المتزايد في بلاد العرب هو الذي دفع المسلمين إلى الفتوحات الإسلامية واضطر السكان إلى الهجرة .

(١١٤) لم نعثر فيما بين أيدينا من مراجع على ترجمة لحياة كل من سل ودرايكوت .

أما السير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) فهو مستشرق انجليزي كان أستاذاً في جامعة عليكره ولا هور بالهند ثم أصبح أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية في لندن . له دراسات إسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى العربية والتركية والأوردية .

(١١٥) هـ. ريكندورف (١٨٦٣ - ١٩٢٤) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً

للعربية في فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار إليه في ليبترج عام ١٩٠٧ .

(١١٦) يوسف هيل (١٨٧٥ - ١٩٥٠) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً بجامعة

إرلا نجن بالمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربي . وقد ظهر كتابه «حضارة

العرب» في ليبترج عام ١٩٠٩ ثم أعيد طبعه عام ١٩١٩ . وقد ترجمه إلى

الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥ م .

(١١٧) ج. كامبفماير (١٨٦٤ - ١٩٣٦) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للعربية

في ماربورج ورأس تحرير مجلة «عالم الإسلام» له دراسات في الأدب العربي

المعاصر .

(١١٨) ظهر كتاب ريم بالألمانية عام ١٩١٥ في لبيتزج بعنوان : «محمد وعالم الإسلام» .

(١١٩) ادوارد ماير (١٨٥٥ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني . صدر كتابه عن (أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الإسلام والمسيحية) في هاله بألمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، أسسها في الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) وادعى أنه يوحى إليه . وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظاراً لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أي أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد ﷺ ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ إن هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية القارئ الذي لا تحفى عليه أهداف هذا العبث الذي ليس له مبرر ديني أو أخلاقي .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» في سورة النجم في قوله تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى﴾ والسدرة معناها شجرة . أما أنها سدرة المنتهى أي التي ينتهي إليها المطاف فجنة المأوى عندها ، أو التي انتهت إليها رحلة المعراج أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ . أما أنها شجرة كانت في مكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك ، فهذا أمر لا يمكن فهمه من سياق الآيات على الإطلاق . وليس له ما يبرره إلا محاولة فهم الإسلام بأنه مقطوع الصلة بالسما .



(١٢٢) كلمة (اقرأ) في قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ تعني القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد في حديث بدء الوحي الذي رواه الإمام أحمد والشيخان عن عائشة وفيه : « فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء » . فرده عليه الصلاة والسلام بقوله : ما أنا بقارىء يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المعهود .